رواية

ذات الوجهين

تأليف

أحمد مراد البابلي

بحلوان

مطبعة مكتبة التأليف بمصر

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة

obeikandl.com

اهداء الرواية

الى حضرة الصديق الحميم

محمد افندى سعيد

دبلوم زراعة

يا صديقي

هديتني في حياتي فأحسنتَ الهـداية ، ورميتُ الى صداقتك فأحسنتُ الرماية ، فلك وحدك أهـدي هذه الرواية ؟

احمد مراد البابلى

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الاول ✡ الحب الكاذب

الفصل الاول

﴿ النموذج (١) ﴾

لسنا نبالغ اذا قلنا ان أغلب أغنياء الطبقة العالية من الفرنسيس يشتغلون بمهنة التصوير ترويحاً للنفس وقتلاً للوقت ولا يبتغون من وراء حرفتهم هذه كسباً ولا أجرا وانما يقومون بها تبعاً لتغلب حب الفنون الجميلة على طباعهم وتمكنها من نفوسهم حتى اذا ما برعوا في هذه المهنة عمدوا الى تزيين قصورهم الشامخة بثمرات عقولهم وأيديهم فملأوا بها الرحبات والجدران بنظام جذاب وتكوين بديع

من هذه الطبقة العليا كلود لورانس رجل متمول من

---

(١) Model كلمة يطلقها الافرنج على النساء التي تستخدم عند الرسامين لاقتباس قوامهن في صورهم

ابوين شريفين أكسبهما العلم والغنى شهرة واسعة وصيتاً حسناً بين أفراد تلك الطبقة فعاشا في بحبوحة من العيش اياماً طوالاً ثم سكنا جوار ربهما تاركين ولدين أحدهما في العشرين من عمره ويدعى كلود السابق ذكره وآخر يدعى ألبير

اشتغل الاول بدراسة علم الحقوق حتى نبغ فيه وحاز فيه الشهادات العليا والموطن الاسمي ثم انتبذه جانباً ورغب في الفنون الجميلة . وكان ذا علاقة ودية مع ابنة عمه سوزان لورانس فرغب فيها وكاشف عمه في ذلك وكان هذا على جانب عظيم من الفضل والغنى فلم ير في ابن أخيه عيباً يمنعه عن الزواج بابنته فرضي به كل الرضا ورأت ابنته كل السعادة في القرب منه

وكان الزواج وطال زمن سعادتهما الا ان الزمان قلب غدار فما لبثت تلك الزهرة اليانعة ان وضعت غلامها مارسيل حتى فاضت روحها من ألم الوضع شاكية الى ربها حرمانها من التمتع بلذة العيش بقرب زوجها وولدها الذي ما كاد يطرق باب الحياة حتى أفل نجمها وذوى جسمها فسكن الثرى

أما ألبير شقيق كلود فقد وجد من ماله الكثير ومركزه الحسن مايؤهله الى القيام بالاعمال التجارية الكبيرة بعد ان درس علومها في كليات فرنسا وتضلع فيها فأثمرت في يده الأعمال وتكللت بالنجاح فزاد ثروة وحسن ذكرى. الا انه أبى الزواج ونفر منه ولا ندري العلة في ذلك غير ان حب العمل والاندفاع فيه قد ينسى المرء الزواج ويبعده منه

. . . . . .

مر على ماذكرناه في المقدمة نحو العشرين سنة لم يفتر فيها الشقيقان من التواد والتزاور وكبر في أثنائها مارسيل وطلب الطب ونبغ فيه وهو على وشك الدخول في الامتحان النهائي في دار هذا العلم ولم يبق عليه الا بضعة عشر يوماً

قلنا ان كلود امتهن التصوير وأتقنه فزين صدور رحبات قصره الضخم الفخم بثمرات ريشته ووحى قريحته الوقادة فزها بها المكان وزاد بها رونقاً

كان قصر كلود على غاية من الابهة والبهاء شيدت جدرانه على مسطح شاسع من الارض احاطت به جنة فيحاء

غرست اشجارها بتنسيق بديع وترتيب عجيب حتى ليخيل للرائي انها قطعة من الجنان هبطت الى الارض وحواها هذا المكان . وكانت تتخلل تلك الحديقة غدران ماؤها عذب فضفاض تنساب بين الآجام الصناعية والهضاب انسياب الحية بين الاعشاب . وترى تماثيل من مرمر في بقاع عدة من تلك الحديقة وفي يد كل منها مصباح يغنى الليل عن القمر ويقوم مقام الشمس اذا ما النهار ولى ودبر

تحت هضبة من تلك الهضاب الصناعية التي يحسبها الرائى لأول وهلة طبيعية وبجانب غدير من تلك الغدران تتكسر مياهه على صخور تلك الهضبة بخرير طالما تمنى سماعه عشاق الموسيقى وغواة الشعر قامت غادة على غاية من الرونق والجمال قد رنت بطرفها نحو قبضة من الزهور حواها بنانها وعبثت بأوراقها أناملها . كانت تلك الغادة واقفة على صخرة من تلك الحديقة الماء من جانب والزهور من جانب آخر وراءها تلك الهضبة وامامها منتثر الورد والرياحين . كانت لابسة لباساً عربياً وأزارا من حرير دبجته يد الصانع بجواهر غوال زادت من جمال المرأى

وبهاء المنظر . تركت الشعر مسترسلاً حتى تجاوز الارداف ووقفت ساكنة ترنو الى الزهر كأنما على رأسها الطير . وكان امامها لوحة التصوير ووراء هذه رجل مسك الريشة مسكة من اختبل لبه وتشتت عقله . يخط خطاً ثم يرنو اليها طويلاً ويتنهد ثم يعكف على عمله برهة حتى اذا مضت لمحة من الزمن هوت يده على غير ارادته ورفع بصره شاخصاً اليها طويلاً وهكذا حتى ارتبك عمله ولم يجد لنفسه مخرجاً ولا سبيلاً الا التنهد من كبد حرّى . هذه الغادة كانت النموذج وهذا الرجل كان الرسام . هذه جنفياف وهذا كلود

الفصل الثانى

﴿ العاذل المحق ﴾

استمر كلود يرسم هذه الغادة اسبوعين ولا يزيد عمل يومه عن امسه الا بقدر ما يزيد الظفر في مثل تلك المدة وكان قد رآها في ملهى الاوبرا في ليلة من ليالي الصيف الزاهية فتمكنت من قلبه بعد ان نبذ الهوى عشرين عاماً مذ ماتت امرأته وكان موتها شاقاً عليه فحاول الانتحار لولا ان ابنه في

مهده مد له يده وصار يبكي امه الماثتة واباه الحزين. فما لبث ان رمى بالمسدس جانباً وجرى نحو طفله والدموع تحول دون رؤيته اياه وضمه الى صدره وهدهده وهو لا يجد كلمة يفوه بها تسكيناً لبكائه

استمر في حزنه على تلك الزوجة البارة مدة عشرين سنة تخال في اثنائها البياض في شعره الا انه بقي محافظاً لقوامه المعتدل وهيئته النبيلة فربى ولده وأحسن تربيته وقام بتعليمه وتهذيبه حتى صار من طلبة الطب

قلنا انه رمى بريشته الى الارض يائساً من عمله وقال « لست أقوى على المزيد. ابت كفاى اليوم الا تيبساً فلست ادري بعد ما انا فاعل »

فرمقته الغادة في موقفها الذي يأخذ بمجامع القلوب ويفتن العابد في صومعته وقالت له بصوت تشوبه الرقة والغنة

— ما بالك يا كلود (وهي اول مرة نطقت باسمه دون اللقب)

— غطى هواك على بصري فلست اقوى على اتمام العمل

— هواى . . او مثلي يهواه مثلك . . لعلك تسخر بي يا كلود

— كلا ومن ذال قلبي لسلطان حبك

ثم اقترب منها وانزلها من موقفها واحاط كتفها بذراعه وتمشيا خطوتين في تلك البقعة فما لبثت ان تخلصت من ذراعه برقة ورشاقة ونفرت نفور الظبي قائلة

— آه لو تدري ما بي يا كلود

— وما بك ايتها الحبيبة . ألا فاذكري لي ما يهمك واقسم بذاتك الجلي لأمحونه من فكرك ولا ذللن لك كل ما شق وصعب

— ليس ما بي من سواك ايها الحبيب

— وكيف

— لست أقوى على ذكره لانه يذيبني أسى . . . . بالله تمم عملك حتى ارجع الى كوخي . . آه يارب لماذا اضعفت من قلوب النساء حتى باتت مثلى تحلم حلما هائلا لا يحتمل صدقه . . كلود . لست أقوى بعد على الكتمان . فانا احبك حبا امتزج بدمي فاستمددت منه الحياة . . يالله كم

من ساعة مرت بى وانا واقفة هذا الموقف أكاد اقع على قدميك باكية شاكية لك قلبي الذي تغلب على عقلي فجعلني آمل بحبك لى

ثم ألقت بنفسها على صدره وانهملت دموع الفرح من أماقيها فطوقها بذراعيه وقبلها قبلة طويلة أودعها كل ما يكنه صدره ويجيش بنفسه من الحب القوي المتين . ثم أرخى ذراعيه وطوق خصرها بذراعه اليمنى ولمس باليسرى شعرها وقال — الاحبذا لو ترضين بى بعلا ياجنفياف

فقالت وقد عقد لسانها الفرح

— يا رباه . أو تصدق الاحلام . أيهبني الله السعادة دفعة واحدة وقد كدت أيأس . كلود . اني أرى موانع تحول دون الزواج . اخاك وابنك . . ألا كفاني من الحب رؤيتنا واستمتاعنا بالخلوة . . . آه اني أخشى خيبة الأمل

— من ؟ اخي وابني ! وما شأنهما ؟ ألهما التسيطر على الفؤاد ولا سلطان عليه الا الله ثم الحب . عجباً لك يا جنفياف من هـذا الخوف واليأس . او هل هناك شيء اسرّ للأخ

من سعادة اخيه وافرح للابن من فرح ابيـه . قللي من تخوفك واجيبي : الم يعلق فؤادك بحب ما

— كلا والذي قيدني بحبك

— او ترضين بي بعلاً

— نعم . . . . .

ولم تكد تنطقها حتى وافاهما خادم من قبل أخيه وقد حضر يريد رؤيته . فتمتم كلود ردا على جواب جنفياف

— يا للسعادة . ويا للغبطة

ثم دار نحو الخادم وقال بصوت يتهدج

— أنا آت عما قريب

— ولكنه ينوي الحضور اليك يا مولاي اذا لم يرك آتياً معي

— حسناً فهيا

فأحست جنفياف بانقباض داخلي ووقفت تشيع كلود النظر حتى توارى بين الشجر

جاء ألبيز لورانس اخو كلود بناء على رسالة أرسلها مارسيل يتوسل اليه فيها بأقناع ابيه كلود عن الاندفاع في

حب جنفياف والتهور فيه . وكان قد لاحظ شيئاً من ذلك على ابيه ورأى سيماء الخبث في عين المرأة . فجاء عمه ملبياً دعوته وقد كره ان يندفع اخوه في حب غانية لا شيء فيها الاّ جمال زائل ربما شابته رذيلة عمت عنها عين الحب وعين الحب عن كل عيب كليلة

دخل كلود رحبة القصر وقد رأى اخاه وابنه واقفين قد تجهم وجههما وطارت نظراتهما شعاعاً في بيداء الفكر والتخيل . دخل عليهما فاتحاً ذراعيه لاخيه يريد عناقه وقد أعماه ما به عن فهم حالة الرجلين فتنحى اخوه الى الوراء واقتدى به الابن فلم يفطن كلود للامر بل مد ذراعه لمصافحة اخيه فأباها عليه اخوه وفاجأه بقوله

— كلود ! على ماذا انت مقدم

— ماذا تريد بذلك ايها الشقيق

— اريد حبك الشائن لتلك الغادة الضالة ولا اسرة لها ولا نسب ولا مال

— جنفياف ! جنفياف غادة ضالة ليست بذات نسب كفاك هذيانا يا اخي ودع ما لا يعنيك

— لا يعنيني ؟ كيف . أغطى هواك على عقلك فلم تعد تدرك .أم طمس على بصرك فاعماك عن الواضح الجلي ؟ ألا بعدا للحب وتعسا لك

— أبى أسألك بحق ما كان لوالدتى عليك من دالة ومنزلة ألا ما أدركت كنه موقفك . أبى . ليس الحب عاراً ولكنه عار عليك ان تعيد أيامك الاولى وابنك ابن عشرين لا يزال على ماهو عليه من الحب لك والاحترام حتى نبذ كل ما يحول بينك وبينه أبى ! . . . يالله من شر تلك السورة

— رباه . أهذا نهاية أمل الوالد فى ولده ان يحب الوالد لولده الرغد والسعادة ويحول ابنه بينه وبينها . ولدي . مارسيل . انى أرى السعادة في الحب فان كنت تراه ذنباً فاغتفره لي . شقيقي . ألبير . بالله دعني امتع حياتى بالقرب من هذه الغادة فحرام عليكما عذلي في هواها وألف حرام

— صه . كفاك اندفاعاً في تيار اوله موت للعواطف وآخره قتل للنفوس . أصغ . أنا أخوك ألبير أنا شقيقك ولدتني أمك أي انى أرى السعادة في سعادتك ولكني أأبى

على نفسي تلك السعادة الوقتية وكلّ يدري ماوراءها . كلود. هذا ابنك لم تحمل نفسه اندفاعك في حب كما قلت شأن . فدع هواها دع هواها تكن لك أصدق الناس وأطوعهم . اطلب يد اية امرأة سرية شريفة المحتد تضم صوتنا الى صوتك. أما هذه فدعك دعك منها فما الويل الا منها وعليك

— لست اقوى وآسفي

— اذن فسلام . لن ترى لي وجهاً بعد . ولست اعدم في ابنك اخاً صادقاً بعد ذاك الذي فقدته

— أي وربي . لن اقيم بعد اليوم برهة ولن ترانى مادمت حياً . فسلام يا أبي

— لك من الزمن برهة وبعدها القول الفصل. فاذا أبيت فان أدخل بيتك ماحييت اللهم الا في أحوال أدعو الله الاّ يسوقها اليك

— رفقا ياأبي وتأمل

الفصل الثالث

(هجران أخ ونفور ابن)

ثم تركاه ومضيا الى غرفة مجاورة ينتظران ما يقر عليه رأيه . تركاه وهو في حالة تذيب الصخر الجلمد . تركاه متراوحا بين الحب والواجب . . وياله من موقف

مسح عرق جبينه وأزال ما علق بخده من آثار الدموع وقد تاه منه الفكر وتبلبل البال . شردت عيناه وصمت أذناه وخذلته ساقاه فأسند جبينه بيد واعتمد جسمه باليد الاخرى على ظهر مقعد ثم تمتم تمتمة الثمل

— أأترك جنفياف . حبيبتي . يالله . ولم أكد انطق بهذا اللفظ لها الامنذ برهة . ترى ماذا انا فاعل . ولكن أخي . ابني . ابن سوزان . الا رحمة الله عليك يازوجتي واية رحمة . يالهي رفقا بي . كلا لست أطيق . . آه ماذا أصنع ضاع الرشاد وضاقت السبل . كلا بعدا للحب . اليّ اليّ ياولدي اليّ يا أخي

ولكن أبى الله ان يتم كلود جملته اذ انشق ستر الباب

عن غادة بجمال فاضح قد احمرت منها العينان بكاء واهتز صدرها علوا وانخفاضا يتخلل صوتها الباكي شهيق وزفير وارتمت راكعة على ركبتيها وقد انشق عنهما الازار فبانت أعضاؤها كالمرمر الوردي فسترت ما ظهر بشعرها المسترسل الطويل فكان منظر وياله من منظر يذيب القلب الصخرى ويذلل الطبع الوحشي . فلم يكد التعس يراها حتى صعق في مكانه وبعد ان كان مادا ذراعيه الى مأوى أخيه وابنه حولهما نحوها واعتنقها فاختلط الدمعان وامتزج النفسان برهة ثم رفع رأسه وقال

— جنفياف. اسمعت. أرأيت كيف كانا يحاولان هد ركن سعادتي . . . . . واجب . واي واجب أفضل من واجب القيام بالحب لحبيب محب . الواجب . تبا لها من كلمة أخذت من عقول صغار القوم فكبرت فيها حتى باتوا يرون الركون الى الشقاء واجبا . وترك السعادة واجبا . والعزوبة والوحدة واجبا . . . . . ما أضعف عقلي وأوهى فؤادي . . . . . عفوا يا جنفياف عفوا . . لست أطلب عفوك عنهما فهما شقيان . بل اعفي عني انا . انا

المولهه بك وانت المؤلهة عليّ

— كلا ياحبيبي . رباه قوة من لدنك واحتمالاً . الوداع يا كلود . قلت لك ان قلبي لا يحتمل الحب والعذاب ولكن ابى الله الا ان يحمله اياهما . فسلام يا كلود . . الود . . .

— كلا والذي نفسي بيده . لا أتركنك أو أموت يأساً . جنفياف . رحمة بي وكفاك ايذاء لنفسي . تعساً لهما من اخ وابن . لست أطيق البعاد عنك هلا رحمتني وقبلت بي

— وكيف آمل وقد انقطع الامل . أتترك اخاك وابنك لاجلي انا . انا المجهولة النسب الوضيعة الذكر . . كلا . كلا يا كلود لا أريد لك البعد عنهما

— لئن تركاني فهما سيعودان مرغمين . أخي غنيّ ولكنني أغنى منه ولا بد له من التيمن بطلعة اخيه ولو بعد المزار وطال الشقاق . . أبني . لا مندوحة له عني . سيكون طبيباً ولكن الوالد أبقى له من طبه . . . دعك منهما فهما مأخوذان جنفياف عديني بقربك انس العالم اجمع . فوهى بكلمة اكن لك عبداً ما حييت . . . الا تفوهي بها . . . . جنفياف

— احبك يا كلود وسأبقى

— ياللسعادة . وبالرغم انف العذال اللئ . . . . .

فوضعت يدها على فمه وقالت

— صه . فهاهما قادمان

ثم نفرت نفور الظبي الحرون واخترقت الستر وقد امتلأت أملا

فلم يكد كلود يراهما حتى وقف وقفة المدافع الذائد عن حوضه واعتدلت قامته وشبك ساعديه ورفع رأسه وانتظر فقال اخوه

— على ماذا عولت يا كلود . أفكرت في الامر . أرأيت ان ذلك شائن بك حاط بكرامتك . أ . . . .

— كفاك هذيانا ياهذا . ألعلك رأيت ضعفي فقويت . وافتقاري الى صداقتك فمننت . كلا ياسيدي ان لي عقلا أدبر به أمري . فقد صممت على البقاء على كلمتي . قلت سأتزوج جنفياف وستكون امرأتي

— لك عقل . انت . والله ما انت الا غر لو صحت هذه الصفة لمن كان مثلك اشتعل منه الرأس شيبا . الا تعسا لك ولمن يرود حولك

— هنيئاً لك يا أبي بما أوتيت من حكمة وأودعت من عقل . أما انا فلست الا طبيباً خاملا يرجو من الله ان يلهمه الرزق من عمله . فسلام ياسيدي ولست اقول أبي

فانتفض الرجل بغتة ورفع يده مهدداً

— أنت ايها العاق .لست اباك . أهذا جزاء والد رأى الحياة في سعادة ابنه ولذته

فصاح أخوه

— كذبت وايم الحق . اتقول سعادة ابنك وانت تهضم حقه وتقوض ركن حياته . تعال يا مرسيل .دع أباك. انك واجد في أبا مثله في حنوه وليس في طبعه وخلقه. . . سلام عليك ايها التعس . فستريك الايام ما الدهر لك مضمر وسيأتيك بالاخبار من لم تزود

— وداعا ياسيدي فلن ترى لي وجها في بلد أقمت فيه مع عروسك

فهز كتفيه غير آبه بهما وقال

— يالكما من مغرورين

الفصل الرابع

(الطبيب)

خرج الرجلان وكل مقطب الجبين مبلل بالعرق ناقماً على رجل كاد يفوت سن الكهولة قد تملكه الغرام فأنساه الواجب فصار ألعوبة في أيدي غادة لا يعلم الا الله ما انطوت عليه نفسها

خرجا حتى اذا ما وصلا الى الحديقة أمر مارسيل خادمه باحضار ما يراه ضرورياً من لباس وكتب . حتى اذا ما رجع الخادم ركبوا السيارة وذهبوا الى منزل ألبير

نزل مارسيل ضيفاً على عمه ثلاثة أيام خالها دهراً طويلاً لقربه من أبيه ونفوره من رؤيته لما تم منه . ثم ودع عمه وسار في مركبة الى محطة ليون ومنها سافر الى مدينة ليون حيث نوى التطبيب بها قاصداً البعد عن بلد أقام فيها ابوه مع عروسه .

وكان سفره الى ليون عقيب حصوله على الشهادة الطبية من كليته فلم يلبث ان وصل البلدة حتى اشترى منزلا

انيقاً الا انه صغير واتخذ منه مقاماً وعيادة ومده عمه بالمال اللازم لمطالبه فأبى مارسيل قبوله في بادئ الامر الا انه ارغم على ذلك على سبيل العارية وصمم على ان يردها له اذاما اتسع رزقه ونما عمله

وانكب على عمله متخذاً العفة رائداً والشفقة على الفقراء دليلا والملاينة والمعروف سبيلاً حتى ضم تحت لوائه قلوب اكثر سكان البلدة فنبه ذكره وحمده القوم في كل ناد

أحبه الفقير لشفقته والغني لعفته والمريض لرحمته والناس أجمع لحسن معاملته فلم يعد انسان يأتي بذكر الطب والاطباء حتى يقوم كل من اجتمع وحمد لمارسيل مواهبه وعدد مآثره ومدح عمله ودعا له بالتوفيق . فتربت له في نفوس القوم منزلة قل ان يدركها غيره من الاطباء ويحسده عليها كل من احترف حرفته وامتهن مهنته

كان منزله في الساعة السابعة والنصف صباحا ملآنا بالفقراء وكل يشكو علتين مرضه وفقره فلا يلبث ان يخفف ألمه حتى يغدق عليه أحسانه . فاذا ما وافت الساعة التاسعة والنصف أقبل عليه علية القوم يشكون عللهم فيقوم بخدمتهم

بنفس عالية وهمة سامية ويتقاضى أجره منهم ويحمد الله في سره وأعلانه على ما صار فيه من حسن الحال ورخاء العيش

طار ذكره في الآفاق وصارت الاسرات العالية تطلب وده وتخطب صداقته وهو لا يرفض لهم طلباً ولا يخيب لهم رجاء . دانت له القلوب وخشعت له الابصار وطابت له الحياة ولذ له المقام

زاره عمه مرارا في غرفة عمله فجعل يقبله قبلة الاب الحنون ويقول له

— لئن عدمت اباك في أبيك المتصابي فانك واجد بي أبر الآباء وأرحمهم ولا غرو فأنت قدوة الابناء شرفا وأخوة وقياماً بالواجب نحو أمتك

وقد حاول مارسيل ان يرد الى عمه ما أخذه منه على سبيل العارية فكان يقول له عمه « بل ابقه لديك وديعة وتذكارا من عم صيره تصابي أبيك لك أباً »

فحمد مارسيل له يده وقرت عيناه بعمه

الا انه كان رغما عن كل ذلك ساهي الطرف حزينا كئيباً لما نال أباه من ضعف الارادة وخور العزيمة وبيعه

أخاه وابنه في سبيل غانية لاهي هنا ولا هي هناك

كان بالرغم عن فظاظة عمل أبيه يبحث عن عذر يبرر عمله ويقول

— لست أصدق انه نبذني نبذ النواة . كلا فمن كان بي باراً رحيماً مدة عشرين عاماً أقمتها تحت حمايته لا يهدأ له بال مدة بعادي عنه . وما هي الا سورة حب اخذت بقلبه عساها تخمد فيهجر تلك الغادة وينبذها وبذا تعود مياه تصافينا الى مجاريها

وقد سها عنه ان أباه تزوج باحتفال دعا اليه أكبر سراة باريس وان لم يمنعهم قبول الدعوة واعجابهم بجمال الفتاة عن اشمئزازهم من عمله . . . غير انه هو الغني الذي يعمى البصر وهي الثروة التي لا يعمل فيها الانتقاد

مر على مزاولة مارسيل للطب نحو ستة شهور كان رحمة الله على المرضى والفقراء نهاراً وكوكب المسارح وزهرة المحافل ليلاً حتى تسابق كرام الاسرات الى مصادقته وصارت كل أم تمني نفسها بسعادة ابنتها بزواجه منها

هذه حال مارسيل اثناء الستة الشهور الاولى من

زواج أبيه فماذا تم لذلك الوالد الذي رماه نكد الحظ بحب غانية يعلم الله ما يكنه صدرها. هذا ما ستكشفه لنا الايام

لم يمنع شقاق الاخوين من المراسلة فان كانت الزيارة مستحيلة بينهما لما تم الا ان المراسلة لم تنقطع بينهما قط. وكذلك الحال بين الوالد وابنه فلا يأتي بريد من باريس لليون الا وكان لمارسيل نصيب منه مرسل له من ابيه وكله آيات حمد وشكر لله على ما صارت اليه حالة مارسيل غير انه لم يدعه مرة الى الحضور اليه خوفاً من عودة النفور والشقاق

الفصل الخامس

(الثروة البائدة)

لم يكد كلود ينال بغيته من الزواج بجنفياف حتى افرغ عليها خزائنه فطمرها بالجواهر والاحجار وكساها بالخز والديباج وأنفق على حفلاته الليلية أكثر ما جمعه من النضار حتى صارت جنفياف آية في الرونق والجمال فسماها بعض الظرفاء « يتيمة المحافل والسهرات »

أجل . ان كل ما جمعه كلود من مال أطلق يد امرأته

فيه حتى كادت تأتي على آخره وهو لاه ساه لا يرى أمامه الا جنفياف ولا يسمع الاصوت جنفياف ولا يسعى الا إرضاء لجنفياف حتى صار فمه يلهج باسمها اكثر من لهج فم العابد باسم الله جل وعلا

تمكن الحب منه وزاد شوقاً كلما زادقرباً ويطول عذابه كلما غابت عنه غادته لحظة وزد على ذلك تناهى غيرته . نعم ان الحب الصادق قد يربي الغيرة والحرص ولكن ليس كل محبوب يرضى بغيرة محبه اذا مازادت عن حدها «وكل شيء زاد عن حده انقلب الى ضده »

خشى ان يظهر غيرته الى جنفياف فتمله . وشق عليه ان يكتمها في قلبه المدله .فكانت تفلت منه بعض ملاحظات على غيابها الطويل وسهرها المتوالى وتحجبها عنه الا انها كانت تنسيه كل ذلك بابتسامة تشفى عليله وتروى غليله

استمر هذا الاسراف في الصرف والافراط في الانفاق حتى كاد يعجز عن تقديم طلباتها العديدة وحاجاتها المتكررة. كان لها ثوب جديد وما ادراك ما قيمته في كل حفلة راقصة أو سهرة جامعة فلا يلبث المسكين حتى يهرع الى خزانته

فيفرغ لها ماشاءت وشاء لها التأنق حتى خلت وفاضه ونضبت رياضه الا انه كان بالرغم عن كل هذا تنبثق من عينه أشعة الحب والرضى والجذل

أحسّ أخيراً بحرج حالته فاستدان من أخيه ولم يمنع كرم أخلاق هذا من القيام بأعارته حتى صار له عند كلود مبلغ جسيم . أحسّ بذلك كلود ولم ينته عن غيه بل اندفع في ارضاء زوجته كل الاندفاع ابتغاء مرضاتها والفوز بامتنانها

مكث الحال هكذا ردحاً من الزمن يقرب من الستة الشهور حتى شعر ان ماله ذهب وحب امرأته له فتر فكان فتور امرأته من نحوه أفعل في قلبه من ذهاب ماله وضياع ثروته

الى ان كان ذات يوم جالساً في الحديقة وانتبذ منها مكاناً قصياً واعتمد رأسه بين يديه وغرق في سبات الفكر والتخيل وبين أصابعه ورقة ينظر فيها آونة ثم يرفع بصره الى السماء أخرى ويتنهد فيسقط الدمع من عينه أسفا على حياة أمضاها في راحة بال ورخاء حال . ثم جعل يرخي ذراعيه الى ركبتيه ويهز رأسه يميناً وشمالاً ويقول

— أف لدنيا كلها متاعب وشقاء . الا بعدا لحياة كلها

وصب وعناء . ويلي . ماذا فعلت والى ماذا صرت . ذهب مالي . نفر مني الاخ والولد والصاحب . نبذتني الصاحبة ولم يثنها عن عزمها حبي لها وانفاقي عليها

ومكث على هذه الحال برهة ثم أشرق وجهه فجأة اذ رأى جنفياف قادمة من الخارج وعليها لوائح العظمة والجلال. الا انه ارتعد بغتة وأظلم وجهه اذ رآها مرت من امامه ولا سلام ولا كلام . فوقف وراءها وصاح بصوت خافت

— جنفياف

— ما بالك يا صديقي

— اين كنت ايتها الحبيبة

— كنت حيثما أردت ان اكون . وهأنذا ألك حاجة

— نعم رجاء صغير وهو الاطلاع على هذه الرسالة

ومد لها يده بها

فرنت نحوها ولم تمد لها يدا وقرأت ما معناه

« أخي العزيز

« أظنك في رخاء من العيش والحمد لله غير اني على العكس

« اذ ان لديّ مشروعاً عظيماً أريد القيام به ويقتضي نفقات باهظة

« كدت أعجز عن القيام بها فأرجوك أن ترسل اليّ المائة الف فرنك
« التي استدنتها مني اذ ان الان وقت الحصاد وستتيسر حالك
« بخلافي انا فان هذا الوقت وقت سداد ما عليّ

« ولا اظن اني اخبرك بهذه شيئاً جديداً فهذه ثالث رسالة
« ارسلتها اليك ولم تتنازل بالرد عليّ . فأرجوك استيعاب كلامي
« تماماً . أريد المبلغ قريباً ولا أمهلك اكثر من أسبوعين و بعدهما
« يكون للقضاء شأن بيننا

« وتقبل سلام أخيك ؟

« ألبير لورانس »

حتى اذا ما اتمتها صعرت له خدها وقالت

— لست أفهم شيئاً

ثم تركته ومضت الى غرفتها بالقصر

فصاح من كبد حرّى

— يالك من شقية . ويالى من غر أبله

ثم استعبر ومضى مقتفياً آثارها

الفصل السادس

(الزوجة الخائنة)

زاد نفور الزوجين واتسع الخرق فلم يبق من أمل في نفس كلود وقطع رجاءه من حبها له اذ ما من مرة هزه الشوق الى زيارتها الا ورفضت مقابلته بداعي ألم طفيف ألمّ بها أو شغل شاغل يدعوها الى البقاء على حدة وصار في بيته ولا سلطة وما النفوذ فيه الا نفوذ جنفياف

كاد يستهين بالمنكود الخدم وكاد يصير هو خادماً لتلك المرأة التي لم تكن من قبل شيئاً مذكوراً فرفعها الى مصاف علية القوم وسراتهم . فلا رأى له في منزله بل ولا حيثية . ينفر منه الخدم بينما يحوم حول الخائنة عشرات منهم . لا يكاد يلتقي بها في النهار الا مرة على مائدة طعام الغداء . أما العشاء فيعلم الله اين تتناوله

انعكست الآية وآل الامر الى الضد . صار الرجل مقيماً في بيته ليل نهار والمرأة تقضي الليالي في المسارح والحفلات والرياض والغابات ثم تعود عند منتصف الليل

تقلها عربة مطهمة الجياد علاها حوذيّ وخادم أفرغت عليهما أجمل الحلل . ثم تأوى الى مضجعها في القصر ولا يخطر التعس ببالها قط

سئمت الحياة بقربه وكانت ترى شبح الموت في شخصه . يصدع آذانها صوته الباكي ويؤلم عينيها منظره المؤلم اذا دب من حولها فكأنما دب على قلبها أو مر بقربها فكانما هو حيوان مستأنس لا تأبه به ولا تفطن له

لقد صدق من قال « ان الغنى محك النفوس ومسبار الاخلاق » فهذا ماظهر من مستور تلك الفاتنة الخائنة وهذا ما صيرها اليه حب زوجها وغناه

وافاها زوجها يوماً وهي في غرفتها فقطبت حاجبيها وقالت مؤنبة

— أيرضيك ذلك . أيرضيك ان تطأ غرفتي ولم تسألني

— لئن كانت حرماً فليست كذلك على زوج زادشوقه الى رؤيتك

— كلا . لست أرضى بذلك . الا تدري ان ذلك يؤلمني

— أو تؤلمك رؤية زوجك ياجنفياف

— لست ادري

وتركته غاضبة ومضت . فطفر الدمع من اماقيه واندلع لسان اللهيب من قلبه فخيلت له الدنيا تدور من حوله والارض تميد من تحته . راى عاقبة الهوى الكاذب وشهد جحود امرأته بالجميل وكفرانها بالنعمة فتأوه وقال

— سلام على ايام كنت فيها رخى البال مرتاح النفس. وبعدا لحب لايجلب الا الشقاء والآلام . صبراً ايتها النفس. هذا ماجنته يداي ومن العدل ان أذوق ثمار ماغرسته

ثم جعل يراجع نفسه ويقول

— ألا تبالي من أبله . كيف غفلت ولم أدرك أن حبها لم يكن الالما كان عندي من مال ونضار . أتراها أحبتني من قبل وانا في مثل هـذا السن لما بلغ جمالي من المنزلة لديها . أرضيت بي زوجاً لاني محبوب منها . وفي مثل هذا السن . وفي مثل هذا القوام . وهي لاتعدم ان تجد في كل خطوة تسيرها شاباً يرى السعادة كل السعادة في نظرة من جمالها . حقاً لقد جلبت الشقاء لنفسي بيدي!

وكانت هي في نفس الوقت في بهوها تتأفف وتقول

— أف له من شيخ متصابٍ. ما أثقل وطأته وأبرد منظره.

وهكذا دام الحال بين الزوجين مدة طويلة سئم الرجل فيها الحياة وسئمت المرأة فيها الرجل وكان كلٌّ يتجنب صاحبه. هذا يذهب الى شاطىء النهر فيتوه بصره نحو الشمس الغاربة ويترقرق الدمع في عينيه ويأسف على خاتمة حياته المجللة بالشقاء. وهذه تقضي لياليها بالسمر مع عشاق التصابي والمجون ونهارها متنقلة من غرفها الى الحديقة ومن هذه الى تلك جاعلة همها في ان لا تمر في طريق يمر فيها زوجها ولا بسبيل يقوم فيه المنكود

حتى كان صباح نسم تبوأت فيه مقعداً في الحديقة وأتتها الخادمة بطعام الافطار وجعلت تتناوله بهدوء وسكينة تحت ظل الشجر وبجانب الغدير وبينما هي كذلك وافاها خادم يحمل طبقاً من فضة عليه رسالة أتى بها البريد. فانحنى أمامها وقال

— كتاب يا مولاتي

— لي أنا. حسناً

ثم انحنى أمامها ثانيـة وذهب . فالقت بنظرها على الغلاف وهي تسائل النفس عن مرسلها واذا بها انتضفت بغتة وقالت

— ألعله هو !

ثم ألقت ما بيدها على المائدة واسرعت الى فض الغلاف فاذا به رسالة قذرة مكتوبة بخط جليّ واضح محتوية على السطور الآتية

« ياقرة العين

« اليوم تمكنت من الافلات من سجني وانت تعلمين لماذا ألقيت فيه . وسأزورك متى سنحت الفرص »

ماريوس »

فصاحت والبشر يتدفق من محياها

— ماريوس . شكراً لك يا إلهي على خلاصه من ذلك المنفى السحيق . اكاد المس السعادة بيدي من فرط ما أولاني هذا الكتاب من البشر والارتياح . قد حان الخلاص من هذا الثقيل وستطيب لي الحياة مع ماريوس !!

بمثل هذا الكلام قابلت قرينة كلود لورانس تلك الرسالة

المرسلة اليها من شقي هرب من سجنه ولم يستكمل عقابه...
تطيب لها الحياة مع ماريوس ! وحان خلاصها من الثقيل !..
يالله من غريب شعور المرأة ومن متضارب أمياله. تطيب
لها الحياة مع لص سفاك تطارده الانسانية ويطلبه القصاص
وتنفر من رجل ضحى النفس والنفيس في سبيل رضاها !

الفصل السابع

(الشريد)

كان مارسيل ذات ليلة عائداً من حفلة شائقة دعي اليها فلم يكد يطول به المقام في سيارته حتى طرق سمعه صيحة السائق ووقوف السيارة بغتة فأطل من النافذة مستفسراً فاجابه السائق

— سكير يا مولاي أدى به الافراط في الشرب الى الانبطاح في طريق السيارة ولولا قوة المصابيح التي نبهتني اليه من بعد لكانت هذه الساعة آخر عهده بالحياة

فأمره مارسيل بطرحه جانباً من الشارع وان يرجع

ثانية الى مقعده . فلم يتقدم السائق خطوة نحو الطريح حتى صاح بانزعاج

انه قتيل يا مولاي

فهرع الطبيب من سيارته واتجه نحو الطريح وأمعن فيه النظر ثم اخرج سماعة من معطفه ووضعها على جهة القلب وأصغى برهة ثم قال

— أرى به رمقاً . وان لم يسعف في الحال ذهب ضحية الغدر والاغتيال . ألىّ يا جوزيف واحمله معي الى السيارة . برفق . اتئد . حسناً

وساروا بالسيارة الى منزل مارسيل ثم حملا الرجل الى غرفة الجراحة ومدداه على منضدة التشريح وغير مارسيل ثيابه وعاد اليه ولا يزال الرجل مغمياً عليه

ففحص مارسيل الجرح فوجده عميقاً كأنه طعنة خنجر اصابت قفاه الا ان عظم الكتف حال دون ارادة الجاني فلم يكن الجرح بذي خطر فغسله مارسيل ثم ضمده وانعش الرجل ببعض المواد حتى اذا ما فتح عينيه ظهرت عليه ملامح الذهول والدهشة ثم راجع مخيلته قليلاً وتذكر حالته وعرف

كنه مكانه فرمق الطبيب بنظرة اودع فيهـا اجلى معاني الشكر والامتنان ثم قال بصوت خافت

— شكراً لك يا سيدي وألف شكر . انا مدين لك بالحياة فهي وقف لامرك وسترى مني في قيامي بالوفاء اعظم شاهد على ما أقول

واراد الاندفاع في التعبير عمـا خالج فؤاده من تعظيم الطبيب والاعتراف بجميله لولا ان سبقه الطبيب بقوله

— دع عنك الشكر والحمد وأرح جسدك فانت في حاجة الى الراحة . فاذا ما اطعتني نلت الشفاء عمـا قريب ان شاء الله

وهكذا مرت الايام حتى شفى الشريد من جراحـه وصار قادراً على الذهاب . فأتى الطبيب ذات يوم في مكتبه حاملاً قبعته بيده ووقف امامه موقف الذليل الخاضع وقال له بصوت تشوبه رنة البكاء

— دعني اقبل راحتك يا مولاي اعترافاً بجميلك

وخنقه العبرة فلم يقو على المزيد

فتأثر الطبيب من منظره وقال له

— لا حاجة الى ذلك يا بني وما قمت بغير الواجب علي ولستَ اول من عدتهُ وقمت بعلاجه . . . لست احجزك بعد فهاك مسدسك وقد وجدته ملقى الى جانبك فخذه انما لا تستعمله فيما يغضب الله . واليك هـذا المال قوم به أودك حتى تجد لك عملا . واحمد الله قبل حمـدك لي فهو وهاب الحياة وهو القادر الـكريم

فاندفق الدمع من عين الرجل وقال

هذا كثير ! هذا كثير ! ألا فلتقرّ عينك وليوفقك الله لصالح الاعمال ايها المولى ادعو الله بقلب ملؤه الـكمد ان يتقبل روحي فداء عنك اعترافاً بحسن معاملتك وكريم سجاياك

فقام اليه الطبيب وأمر بيده على كتفه وقال

— اذهب يابني هداك الله الى ما فيه خيرك

فخطا الرجل بضع خطوات متثاقلة نحو الباب وهو يكفكف دمعه المنهمر حتى اذا ما اقترب منه عاد ثانية وارتمى على قدمي الطبيب وقال بصوت الآمل الخائف

— بالله يامولاي هلا ما اضفت الى مكرماتك مكرمة اخرى تسجل لك على قلبي بمداد الحمد والشكر

— اجبني على سؤالي ثم انظر بعده في امرك . فمن أنت ولماذا كنت في تلك الحالة التي وجدتك بها

— سمعاً يا مولاي . أنا عبدك لوسيان دوبال . كان أبويّ على جهل عظيم وفقر مدقع فلم يحسنا تهذيبي . نشأت ضالا وليس لي من هاد . آوتني جماعة من اللصوص . جماعة من الخونة الاشرار تراهم في النهار يرتادون الخمر الاندية واذا هم بالليل قتلة فجار . فلم أقو على ممانعتهم وسرت في تيارهم فقتلوا البرآء ويشهد الله ما سفكت كفاي دما ما . سرقوا الناس ونهبوهم وأنا مدفوع بحاسة التقليد والمجاراة ولم أعلم بسوء تصرفي الا عند ما وجدت نفسي ملقى على فراشي هنا اسمع عظاتك وأرى مكرماتكْ . فلك انت ايها المولى الفضل الوحيد في تهذيب نفسي وان كنت قد بلغت سن الرجال وهي نفس سوء . كنت لصاً فاجراً حتى طمع فيّ رفاقي وفي ما انتشلتـه اغتصاباً من ايدي المظلومين فحاولوا قتلي بالصورة التي رأيتني بها . . . . . وهأنا تائب الى الله واليك واشهد الله واولياءه على ان ندمي على ما فعلت شديد فانقذ نفسي يا مولاي ولا تدعني أسير في هـذا التيار بعد

ما وجدت سبيلا الى تهذيب نفسي . اضف الى حسناتك حسنة اخرى وهي وقايتي من عمل السوء

— وكيف ذلك يا بني ولم يهبني الله قوة التسيطر على نفوس البشر

— اجعلني لك خادماً يا مولاي . اتخذني لك عبداً . دعني اعيش معك تحت سقف واحد فقد طابت لي الحياة بقرب منقذي من شر مهاوي الردى

— اذا كان هـذا كل ما ترجو فقد اجبت سؤلك . وقد اتخذتك خادماً اركن اليه في قضاء مهامي المنزلية

فعقد الفرح لسان لوسيان وارتمى على قدمي مارسيل وبللهما بدموعه وصاح

— شكراً لك يا الهي . وشكراً لك يا سيدي . شكراً .

﴿ تمّ القسم الاول ﴾

القسم الثاني ✡ الجريمة

الفصل الاول

(عصابة اللصوص)

في باريس كما في غيرها من العواصم الكبرى المتمدينة عصابات من اللصوص تختلف باختلاف طرق النهب وسبل الفتك . فمنها ما حوت كبار المجرمين من مختلف الطبقات فترى فيها الميكانيكي الماهر والصانع والتاجر والشاب النبيل والشيخ الجليل جمعت بينهم اواصر الشر وألف بين قلوبهم الميل الى ارتكاب الجرائم والموبقات . وكثيراً ما سمعنا عن رجال نبغوا في فن من الفنون استعملوا ذكاءهم في ايذاء الناس وعداء الانسانية . هذا طبيب يقوم ليله في تحضير مختلف السموم والعقاقير حباً في سفك الدماء لعلة اخلاقية عجز عن فهم كنهها فطاحل علماء النفس والاخلاق . وهذا مخترع شغل حياته في نصب الحبائل والفخاخ يتصيدبها كل من رماه سوء الحظ بين براثنه الى غير ذلك مما لا تخلو منه

عاصمة من تلك العواصم التي ضرب فيها التمدين أطنابه . وكبر فيها شأن العلم وطرق كل الناس ابوابه

من تلك العصابات عصابة دموية فتاكة ضمت تحت لوائها عدداً كبيراً ممن لذ لهم فعل الشر وأيقاع الضر اختلط فيها الحابل بالنابل فبينا ترى برنار حوذيا اذا بجوتيه موظفاً ونافار نبيلا ودوران تاجراً وبيساك عاملا ومادلين غانية وماري ممثلة وبرتا عاملة. ألف بين تلك القلوب حب جمع المال بالطرق الشائنة والسبل المحرمة لا يعوقهم احساس ولا يوبخهم ضمير . ترى الرجل يفعل فعلته الشنعاء وتظهر على وجهه سيماء الارتياح والرضى كأنما هو قد قام بعمل شريف يحبذه الشرع وترضى به الانسانية . لا ضمير يردع ولا زاجر يمنع . قد ألف ذلك العمل ولذ له فهو ولاعجب كشارب السم للاستشفاء لا يخاف السم ولا هذا يؤثر فيه

كانت تلك العصابة اشبه بحكومة مطلقة . للرئيس فيها الكلمة النافذة والقدح المعلى . اذا قضى فلا رد لقضائه واذا حكم فلا نقض ولا ابرام . اطلقت له العصابة اليد في تقسيم الغنائم بين اعضائها وفي ادارة شؤونها حتى اذا ما ارتأى رأياً

كان له الكل اطوع من البنان . أو قضى بأمر فليس الا الرضوخ والاذعان

وكان ينيب عنه في غيابه شابا نبيلا أوقعه سوء نشأته بين براثن تلك العصابة فآنس من نفسه ميلا الى الشر وارتكاب الجرائم فرضي بتلك المنزلة وطاب له فيها المقام

كانت تلك العصابة من مختلف المهن والطبقات تأوى دورها نهارا في أعمال مختلفة حتى اذا ما وافى الليل خلعوا لباس العمل واجتمعوا في دار قلّ ان يحوز مثلها مثر عظيم او امير كبير

يجتمعون في تلك الدار ليلا بلباس السهرات الرسمي ينتظرون فيها حضور رئيسهم حتى اذا وافاهم قاموا له اجلالا وتعظيما فيأمر بالشراب والرقص فيندفع القوم بين هذين حتى اذا ما اخذوا منهما نصيبهم الاوفى كفوا عنهما وانصتوا لما يامر به الرئيس من الاعمال فيقف هذا وقفة الكبير المتعاظم ويسرد لهم ما يعن له من الافكار الشيطانية من سطو وسبي نساء وقتل نفوس واختلاس اموال حتى اذا ما أتم سرد الفكرة قام بتوزيع العمل كل يقوم بدوره في

تلك الرواية . يسرد عليهم تلك الاوامر الجهنمية وهم يتلقونها بالبشر والجذل ويصيحون صياح الحبور والفرح ثم يذكرهم بمكان المقابلة في مأواهم المعهود وفي ساعة معينة.

عجيب أمر هؤلاء البشر . يرضون بحياة ملؤها الجرائم وسفك الدماء ويضمهم الاتحاد تحت لوائه ولا يفكر احدهم قط بالخيانة والاستئثار . يأبون العيشة الشريفة والكسب الحلال ويركنون الى سلب مافي أيدي الناس بطرق ما انزل الله بها من سلطان. كل ذلك وهم مرتاحو النفس هادئو البال

حتى النساء منهم يقمن بتلك الاعمال بطيبة خاطر وقد خلقن جنسا لطيفا يأبى الخشونة والايذاء .

هذه هي العصابة التي يقوم برآستها ماريوس ويقوم بأمر وكالتها نافار(أو ده نافار ان صح اطلاق لفظ النبل عليه)

وعلى فرط ما لهذه العصابة من قوة ولرئيسها من سعة المدارك فقد خانه الحظ مرة فقبض عليه متلبساً بجريمة وأودع السجن اياما على ذمة التحقيق فرأى من بلاهة الحارس وشرهه اقوى مساعد على خلاصه من السجن وفراره من

القصاص. فسار مسرعا الى مأوى عصابته حاملا اليهم بشرى نجاته راويا لهم ما انطوت عليه نفسه من حب الشر والايذاء.

الفصل الثاني

(المأوى)

في حي سان أنطوان بباريس وهو موطن رعاع القوم وسفلتهم مآو للصوص يلجأون اليها عند الحاجة وبها كل ما يلذ أنفسهم من شراب سام وبنات هوى أكل عليهن الدهر وشرب

ففي ذلك الحي خمارة واسعة يرأسها شيخ شرير يدعوه بالعم جالك . يقوم بالنهار في خدمة كل من وافاه من سكان الحي حتى اذا ما أقبل الليل وأرخى سدوله كانت خمارته مأوى لتلك العصابة . عصابة ماريوس

ان الداخل الى تلك الحانة لا يرى بها شيئاً يستحق الالتفات والتنويه . ففي صدر المكان منضدة وقف وراءها الساقي حملت عليها قناني الشراب وفي صحنه بعض موائد

رثة أحاطت بها مقاعد قد تأكل خشبها وتفتت قشها . وفي الجانب الايمن برميلان ضخمان يسع الواحد منهما ثلاثة رجال واقفين ملىء الاول شرابا يعلم الله كيف ركب والآخر خال تكومت عليه الاتربة والاوساخ والخرق البالية

تلك الحانة ما كانت الا سبيلاً لتعارف أعضاء العصابة وطريقاً للاجتماع والعم جاك مشرق المحيا مرتاح النفس لما يراه من كثرة العدد وكرم الرئيس . تلك الحانة هي التي جعلتها العصابة مسرحاً لاعمالهم وسبيلاً للوصول الى وكرهم.

ففي ليلة من ليالي الخريف بينما العم جاك يندب سوء حظه لغياب الرئيس الطويل ولقلة الوفود عليه ويحدث نفسه وهو يرتب المقاعد وينظف الكوب :

— مابال الرئيس قد غاب نحو الاسبوعين. أتراه وقع في حبائل لابسي الرداء الازرق (الشرطة). ألا لحاهم الله من ظلمة يعكرون على الناس صفو لياليهم ويحولون دون الكسب والاثراء . أما والله لو دام الحال هكذا أسبوعاً آخر لعدمت المال وفقدت الحياة . وأية حياة تطيب مع الفقر. أف لهؤلاء البله (الشرطة) فهم لا يفقهون لذة المال حتى باتوا يعرقلون

مساعي من جد في سبيل الحصول عليه . . . حرام . . أليس حراماً أن يرث الرجل من أبيه مالا طائلاً لم يحرك في سبيل الحصول عليه ساكناً. بينما الآخر يجد ويجتهد ويتصبب بدنه عرقاً طول نهاره ويسهر طول ليله ولا يكاد يفوز بقوت عياله ليلة . . انما الحرام بقاء المال بيد الاغنياء وحجزه عن الفقراء . وليس ما يفعله الرئيس حراماً اذا كان يسلب الغني ارضاء للفقير وحباً في . . . من ؟ (وقد سمع طرقا) . . . لعل الوهم مثل لي طارقاً بالباب . آه أخاف ان تفشل هذه العصابة ويذهب ريحها فأبوء . . . من بالباب . هه . (وقد عاد الطرق) هأنا آت . . . وآفرحتاه . ها هو أحد الزوار ألجأه العطش الى . . اليّ اليّ يارب بكثير من أمثاله

ثم ذهب بقدم متثاقلة نحو الباب وفتحه ولم يكد يرى الداخل حتى انحنى له احتراماً وهتف

— حييت ايها النائب النبيل

— أسعدت مساء ياصديقي

ثم قال

— ألم يأت أحد بعد

— كلا يامولاي

— حسناً . اعقل دابتي وانتظر أمري

ولم يكد العجوز يخرج ثم يعود حتى اختفى نافار من الحانة الا ان العم جاك لم يأبه لذلك فقد كان على علم بما تم

ثم سمع طرقا آخر فقال

— عجباً . أو ترى أيام الرخاء تعود . حسناً يا سيدي فها أنا حاضر

ثم دخل رجل وتلاه آخر ثم آخر حتى تم العدد ولم يبق منهم أحد في الحانة بل اختفوا اختفاء رئيسهم النائب والعم جاك لاه عنهم بما يحوم في فكره من كثرة الدخل هذه الليلة

ثم جعل يهيء لنفسه شراباً فلم يكد يتم كرعه حتى سمع طرقاً آخر فقال

— عجباً . اكتمل العدد فمن هذا الضيف الثقيل

ثم فتح الباب وسمع الداخل يقول

— عم مساء ياعم جاك

— عم مساء ياسيدي . أتريد شيئاً من الجعة . لقد

فرغ والله اليوم هذا البرميل وكان به من النبيذ مايسيل لعاب الزاهد

ـ لست أطلب شيئاً . انما دعني أذهب نحو هـذا البرميل الخالي

فأبرقت عينا الشيخ سروراً وقال

ـ كلا ما كذبتني اذناي قط . فمن أنت

ـ رجل

ـ أعرف ذلك . ولـكن .. كلا كلا لم تخدعني اذناي. أنت ملثم محجب ولـكن صوتك . صوت . . آه ماريوس . الرئيس .

قال الـكلمتين الاخيرتين بكل اجلال واحترام عند ما أبصر بالرجل يزيح اللثام ويرفع الحجاب

ـ نعم ياصديقي . أترى ذلك عجباً

ـ كلا يامولاي . ولـكن .. شدة فرحي بعودتك أنستني واجب الاحترام

فخطا الرجل بضع خطوات ثم قال للعم جاك

ـ خاطب نافار بأني حاضر اليه الآن

ـ لقد اكتمل العدد يامولاي

ـ اعرف ذلك فاذهب

فذهب العم جاك الى بوق أشبه بقطعة عظم نخرة قد ركبت فيه أنبوبة من جلد مجوف وصاح بها وهو ينقلها بين فمه وأذنه للكلام والسمع

ـ ياذوي القوة والبأس .. نعم أنا العم جاك .. استعدوا قد حضر الرئيس .. نعم وها هو آت اليكم ..

ثم ألقى بالسماعة ووقف يراقب ماريوس

أما هذا فانه اتجه نحو البرميل الفاضي وضغط على زر فيه فانشق منه لوح ترامى الى الارض كصقالة للمرور مثبت بالبرميل بقوائم من فولاذ فخطاه ثم دخل البرميل وضغط على زر آخر فانشق لوح آخر مثل الاول الا انه أكبر طولاً فظهر وراءه منظر غرفة على غاية من الرونق والبهاء أقيمت في وسطها أعمدة من مرمر صاف حولها الموائد وقد صفت عليها كؤوس الشراب وطباق المآكل . وكان كل ما في الغرفة يدل على نهاية في الغنى وسلامة في الذوق

لم يكد هذا الممر السري يرتمي تحت أقدام ماريوس

حتى علت الاصوات بهتاف حماسي قلّ ان قوبل به مشاهير القواد وكبار الرؤساء . هتفت له العصابة بصوت رنان

ـ مرحباً بالرئيس . فليحي ماريوس سيد العصابة ورب الجماعة . حييت ياذا القوة والبأس

فأشرق وجهه بنور البشر وصاح بهم

ـ سلام ياقوم وتحية . حييت يانافار . ما أشوقني اليك يامدلين . ما أبدعك يابرتا . عم مساء ياجوتيه . كيف انت يابيساك . مافعل الله بك يادوران وانت يابرنار

فصار الكل يجيبه بهيبة واحترام

ثم ذهب الى موائد الشراب الفاخر فقرعت الكؤوس وأفرغت وهم يهتفون له بالدعاء حتى اذا ما تم ذلك عمد الى مائدة واعتلاها وحياهم تحية الرئيس وسأل كلا عما عمل ثم سرد لهم كيفية فراره وهزأ بمن قبض عليه وترحم على حارسه الذي ذهب ضحية البلاهة والطمع

وظل بهم على هذه الحال حتى أشرق الصباح أو كاد . ثم نادى برنار وسلمه رسالة كتب فيها

« شقيقة الروح

«أرجو لقاءك الليلة بقصرك وسأيمم غرفتك فانتظريني واسلمي لمحبك ؟ ماريوس »

وقال له

— انطلق الى قصر كلود لورانس في الشانزيليزيه وابحث عن طريقة في ايصال هذه الرسالة قبل الغروب الى أيدى عقيلته . أياك والخطأ

فانحنى أمامه الرجل وقال

— ستستلمها بيدها يامولاي عما قريب

وتركه وانطلق

وهكذا قضى ماريوس يومه بين منادمة عصابته وسؤالهم عما تم في غيابه حتى آذن النهار بالزوال .

الفصل الثالث

(زيارة ليلية)

عند الساعة التاسعة ليلا من ذلك اليوم كان رجل ملتف بعباءة سوداء غطت منه الوجه والقامة يجوس حول

منزل كلودلورانس حتى اذا ما وجد الطريق خالية والشارع قفرا قفز على سور الحديقة وتعلق بغصون الدوالي ثم هبط الى الارض ولم يسمع له حس ولا صوت

ثم وقف وقفة الحائر أمام كبر الحديقة وشامخ البناء لايدري الى أية جهة يسير ثم حانت منه لفتة نحو القصر فرأى نافذة من نوافذه قد وضع عليه مصباح احمر اللون ضئيل النور غير انه كاف لارشاده الى سواء السبيل في هذا المهمه المظلم . فيمم نحوه وهو يقول

— هذا المصباح الغريب لا بد موضوع في غرفتها . ولم تنتق هـذا اللون الا لالفات نظري . آه ما أشوقني اليك ياجنفياف

كانت جنفياف في تلك الساعة جالسة امام منضدة فاخرة عليها كتاب تقرأ فيه ثم لا تلبث ان تمر ببصرها عليه حتى تتأفف وتقول

ـ ما باله لم يأت بعد

ثم تتوه في معالم الخيال برهة راجعت فيها الماضي وتذكرت أيام حياتها مع ماريوس وساعات الهناء التي قضياها سوياً .

وتخيلت كيف رآها لاول مرة ليلة عيد الجمهورية في أحدى المنتزهات العموميـة فتحبب اليها وأتلف القلبان منذ تلك الليلة وأصبحت جنفياف ترى الحياة في قربه ويرى السعادة في قربها .ودام الحال هكذا حتى فرق بين جسميها اختلاف المطالب الا ان القلبين كانا لا يزالان مؤتلفين

اعادت جنفياف صورة هذه الحياة الماضية امام مخيلتها وهي امام كتاب تقصد بقراءته قتل وقت الانتظار واين لها فهم ما تقرأ وهي على ما كانت عليه

وبينما هي على هـذه الحـال من القلق والسآمة اذا بصوت لطيف اودع فيه كل معاني الرقة واللطف يقول

— جنفياف

فأشرق وجه الخائنة بغتة وتغيرت معالمها فجأة وصاحت

— يا إلهي ! ما هذا الصوت الجذاب ! اترى الحبيب قد آب ؟ !

ثم سمرتها الغبطة في مكانها فلم تعد تقوى على القيام وصار قلبها يخفق وصدرها يهتز فرحاً وشوقاً

.. جنفياف

— ماريوس ! ما ألذّ هذا اللقاء وأطيب

— احقا كنت تنتظرينني ياجنفياف. الا يزال لى في قلبك مكانه بعد ان تم ما تم من فراق وزواج

— لك المكانة الاسمي في فؤادى ايها الحبيب تعال اليّ وعانقني فقد طال غيابك عني

وكان عناق طويل تخللته القبل الحارة حتى اذا ما استوفيا نصيبهما منها أجلسها الرجل على ركبتيه وخاصرها باليمنى ومر على وجهها باليسرى وهو يقول

— ألا بعداً لرجل يمتع طرفه بمرآك سواي . جنفياف كيف رضيت بالزواج وكيف ركنت الى هذا الشيخ المتصابي . . ما أجملك يا جنفياف وما أطيب أيام قضيناها سوية . ألا عديني ببقائك على حبي أفعل المعجزات . . يا لله ما أبهاك

— ما أسعدني بلقائك وأغبطني بقربك يا ماريوس

ودام الحال برهة هكذا بين بث شوق وتبادل عبارات الحب حتى عاد ماريوس الى الحديث فقال

— وهذا الذي يدعونه زوجك كيف أنت معه

— لحاه الله من ثقيل . قد سئمت والله الحياة بقربه . ألا ما وجدت لي خلاصا منه يا ماريوس بحق ما جمع بيننا من حب وغرام

— وكيف لا خلاص وانا أجود بنفسي في سبيله

— ألا حبذا يوم اقيم فيه بقربك وأتمتع بحبك . . . انظر . . . . هذا صورته . أتجد في منظره شيئاً يجذب النظر ويمتع البصر . . . أترى هذه اللحية التي شابها البياض مع هذا الوجه الكريه والرأس الصلعاء . رباه كيف يطيب المقام لابنة العشرين مع شيخ شق له القبر . يسومني العذاب كل يوم بغيرته . . يقتفي أثري اذا ما خرجت ويقيم عليّ الجواسيس اذا ما أقمت . بارز رجلا وجرحه اذ رآني أبسم له . . ذهب ماله ودالت دولته فلم أعد أطيق صبراً

فقال صاحبها وهو يضحك

— من طمع في القرد لكثرة ماله . ذهب المال وبقي القرد على حاله

— يارباه . أما من خلاص

الفصل الرابع

(تدبير الجريمة)

ثم عاود العاشقان الحديث وبدأ به ماريوس فقال

— تقولين ذهب ماله وكيف . أليس هو الذي كان يحوز الملايين وكان رب المحافل والنوادي . ألعله قال لك ذلك لبخل في طبعه أو خشى أسرافك فأنبأك بذلك

— لا والذي جمعني بك . لم يبق لديه من المال ما يقوم بقضاء الضروري من أسباب المعيشة . لدي شاهد على ما أقول . . انتظر

وقامت عن ركبتيه وجرت برشاقه جذابة الى غرفة مجاورة ثم غابت لحظة وعادت وبيدها ورقة وهي تقول

— اقرأ هذه يظهر لك جليّ حاله

— انها خطاب من أخيه يطلب منه رد عارية مائة ألف فرنك . . هذا كثير . أظهر لك منه العجز عن القيام بسدادها في الميعاد

— ولا في غير الميعاد . رأيته يبكي حين قراءته وجعل

« يسب الدنيا ويهدد السماء بقبضتيه ويقول كيف لي السداد وانا في شر مهاوي الافلاس . ليس لدي شيء وآسفي فليفعل أخي ما يريد »

فصمت الرجل برهة يفكر ثم قال بغتة

ـ أتودين الخلاص منه حقيقة يا جنفياف

ـ أي ورب السماء . أوده من صميم فؤادي . ألديك طريقة له ؟

ـ وأية طريقة ! طريقة تخفف عنك عناء رؤيته الى الابد . هو شيخ كما تقولين شق له القبر فلنجعل على سده به

ـ ويلاه . أتقتله ؟

ـ كلا بل سيقتله العدل والقضاء

ـ وكيف بربك ألا ما أوضحت لي عن عزمك

ـ سترين فيما بعد واحفظي هذه الرسالة لديك فلها دورهم . أليس لديك شيء منه هنا .. منديل عليه اسمه .. رداء . أي شيء

ـ بلى لدي هنا أحد معطفيه اللذين يلبسهما ليلاً وقفازاه

ـ عليّ بهما عليّ . وقع ورب السماء

فقامت الماكرة الى حيث المعطف والقفازان تكاد تطير فرحاً لخلاصها من رجل مله قلبها

ثم عادت بهما فاذا معطف من صوف أشقر وقفازان من لون أبيض ثمين وألقت بهما عليه وقالت

ـ ها هما . أترى بهما نفعاً

ـ كل النفع . اسمعي لما اقول ..سأرجع ليلة الغد ومعي هذا الرداء وقفاز واحد فضعي هذا الاخير في احد جيوب المعطف وارجعيه الى مكانه ولا تبدي شيئاً مطلقاً . ثم اذا طلب منك احضار المعطف احدٌ فضعي الرسالة في جيب آخر ... اياك والاختبال في العمل

ـ سأصدع

ثم عاود العاشقان التقبيل والعناق حتى شاب غراب الليل فقام ماريوس يطلب الانصراف فرنت اليه بلحظ فتان وقالت

ـ أو تغادرني هكذا سريعاً

ـ لابد من ذلك ايتها الحبيبة لئلا يعلم أحد بزيارتي لك فتحبط أعمالنا

.. اذن صحبتك السلامة ورافقك التوفيق

ثم قام وقبلها قبلة الوداع وظلت تشيع النظر حتى غاب عن لحظها فآوت الى غرفتها طالبة النوم بعد ما احيت ليلها..

اما ماريوس فداوم المسير حتى وصل الى سلم القصر الكبير واذا به قد انحنى بغتة واختبأ وراء سور السلم ومشي وهو منحني الظهر وما هي الا برهة حتى برزت قامة رجل أحنى الهم كتفيه وأثقل الكبر قدميه وهو يرقى السلم شاخصاً الى القصر

كان هذا الرجل كلود لورانس المنكود الحظ . وتلك كانت عادته مذ ابتلى بهجران حبيبته وزوجته . كان يصحو والطير في وكناتها ويذهب الى شاطيء بحيرة صناعية في حديقته الواسعة ويرقب فيها الفجر حتى اذا ما سطعت الغزالة بنورها الوضاح خشي الافتضاح وصعد الى القصر ابتغاء نظرة من جمالها او سماع نبرة من صوتها

ومما زاد في حالة المنكود سوءاً ازدياد حبه لها وتدلهه بها . فكلما زادت نفوراً زاد هوى . يرتعد لمرآها ويختلج فؤاده لذكراها . يعلم كرهها له فكان يتحاشى ان تراه حتى

لا تزيد ألماً بمرآه ! .. ضاقت به السبل وضاع منه الرشد . غير انه كان راضياً باعتقاده انها تساكنه وانه على مقربة منها . هذا كل أمله وأقصى أمانيه

صعد الى القصر وأوى الى غرفته بينما كان ماريوس يسترق الخطا ميماً نحو السور حتى اذا ما اعتلاه رأى عشيقته واقفة وراء نافذتها تشيعه النظر وترسل له القبلات بأطراف البنان فأجابها بمثل عملها وهبط الى الارض وسار مجداً في طريقه الى مأوى العصابة

دخل المأوى فلم يجد احدا الا برنار فأشار اليه اشارة السيد فهرع اليه الرجل ووقف امامه موقف الخاضع وانتظر امره

اما ماريوس فتبوأ مقعدا في الحانة واخذ ورقة من جيبه وكتب عليها رسالة وسلمها لبرنار وقال له

— كن على تمام الاستعداد لارسال هذه الرسالة البرقية الساعة الثالثة بعد الظهر تماما

فأخذ الرجل الرسالة وانحنى ولم يفه بكلمة

الفصل الخامس

(الجريمة)

هناك شخص من ابطال الرواية غفلنا عن ذكره مدة طويلة وهو ألبير لورانس اخو كلود

سبق ان قلنا ان ألبير لورانس كان قائماً بالاعمال التجارية بباريس وظل فيها حتى حصل الشقاق بينه وبين اخيه كلود فتبع مارسيل الطبيب الى ليون وهناك زاول اعمال المصارف وصادف فيها رواجاً عظيما

ظل ألبير أعزب وسكن قصراً كبيراً بهيّ المنظر جعله مقاما له عند انتهائه من عمله . وطالما اجتمع فيه مع ابن اخيه فكانا يقطعان في المسامرة وقتاً طويلا

اعتاد ألبير التنزهة راجلا او في سيارته في بعض المتنزهات العمومية بليون في اوقات فراغه. فلا توافي الساعة الرابعة حتى يكون في سيارته ميمماً جهة الحدائق والمتنزهات ترويحاً للنفس من عناء العمل ويظل في نزهته حتى الساعة السادسة يعود فيها الى قصره فيتناول العشاء مع من دعاه

معه لهذا الغرض ثم يقضي اوائل الليل إما في الملاهي الراقية او مسارح التمثيل أو تلبية لدعوة الى غير ذلك مما لا تخلو منه حياة رجل ملوءها النزاهة والشرف

كان بالرغم عن نفوره من اخيه كثير الحنو عليه يدعو الله صباح مساء ان ينقذه من مخالب تلك الغانية التي شعر منذ رآها بويل منها قريب . ولم يعلم قط بما تم بين الزوجين من النفور وبما باخيه من افلاس والا لما ارسل يطلب منه دينه وانما نسب عدم رد اخيه له الى كثرة مشاغله بتلك الحسناء. وكذلك كان الحال بألبير اذ جعل ينتحل لاخيه العذر ولا يفقه الى الحالة التي وصل اليها أخوه

حتى كان ذات يوم (وهو صباح اجتماع العاشقين بقصر كلود) بينما كان خارجا من قصره الساعة الرابعة قاصداً النزهة كما هي عادته وافاه ساع من سعاة البرق وقابله بالباب وسلمه رسالة برقية وانتظر الوصل المؤشر منه بالاستلام حتى اذا ما امضاه ألبير حياه الرجل ومضى

فتح ألبير الرسالة واحس بانقباض داخلي لم يدرك كنهه ولم يكد يمر عليها بنظره حتى صرخ

— ويلاه . على شفا الموت . ياله من منكود

ثم التفت الى خادمه وصاح به وصوته يتهدج

— اذهب وجهز جعبة السفر ومعطفة . اسرع ليس لديَّ وقت . . . الساعة الآن الرابعة والنصف وباق عليَّ بعض امور في المصرف تشغلني الى الساعة الثامنة فلا سبيل الى الرجوع ثانية الى القصر لتغيير ملابس . . . قف بالمحطة وانتظرني الساعة الثامنة والربع فاني مسافر على قطار الساعة التاسعة مساء . . . . . كلمة . . . . . اياك ان تخبر مارسيل بسفري فسأعود قريباً . . انتحل اي عذر كان . . اذهب

كان سبب هذا الانقلاب الفجائي هذه الرسالة البرقية التي وافاه بها الساعي . وكانت محتوية على ما يأتي

« ألبير لورانس . صاحب المصرف . ليون

— على شفا الموت فاحضر لأودعك ؟

كلود »

وهذه هي الرسالة التي بعث بها ماريوس وذهب بها برنار

. . . . . .

حوالي الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم كان رجل لابس معطفاً أشقر شد بقبعته على عينيه أخفاء لمعالم وجهه واقفاعلى حافة الرصيف الخالي يحادث عاملاً من عمال السكة الحديدية ويقول له

— متى يقوم القطار الذاهب الى باريس الليلة يا سيدي

— عند الساعة الثامنة والخمسين دقيقة يا مولاي

— وفي اية ساعة يصل باريس

— حوالي الساعة الاولى صباحاً

— شكراً لك

ولم تمض برهة حتى دوى في فضاء الليل صوت صفير القطار ثم ظهر واقترب من المحطة ثم وقف .وكان المسافرون في تلك الليلة قليلي العدد فلم تصعب على ذي الرداء الاشقر ملاحقة رجل دخل المحطة وركب في عربة من عربات الدرجة الاولى ثم ظهرت رأسه من النافذة وأخذ حقيبته من خادم له واقف على الرصيف ثم أسرّ اليه ببضع كلمات فتقهقر الخادم ومضى . وكان هذا الرجل ألبير لورانس

ركب الرجل المجهول في نفس العربة في ذلك القطار

وانتظر حتى اذا ما تحرك القطار وخب في سيره قام من مقعده وجعل يرود الممشى متلصصاً ذات اليمين وذات الشمال حتى اقترب من غرفة ألبير وتحين من المنكود سنة من نومه فاستل خنجراً برق نصله في ذلك الظلام الدامس وهوى به

ثم مضت برهة ساد فيها السكون ظهر بعدها الرجل المجهول في الممشى راجعاً الى غرفته وانتظر الوصول الى باريس بكل هدوء وسكون كأنه لم يقترف عملاً تقشعر منه الانسانية رهبة واشمئزازا

. . . . . .

نام الرجل نومة الهانئ حتى اذا ما كاد القطار يصل الى باريس هب من مكانه وخلع رداءه ثم تأبطه واستعد للنزول من القطار تواعند وقوفه . وزيادة في الحرص والكتمان تعدى الرجل عربة أخرى حتى اذا ما وقف القطار نزل من عربة على مسافة ٤٠ قدما من عربة القتيل

ولم تكد تنال قدماه الارض حتى زاحم الخارجين مسرعاً الى موقف العربات وصاح بالسائق باسم شارع بالقرب من

الشانزليزيه وحثه على الاسراع فألهب الحوذي خيله بالسياط فسارت تنهب الارض نهبا

ولم تكد العربة تمر بقهوة السلام وهي اضخم دار للسهر في باريس حتى انتفض الرجل فرحا وصاح بنفسه

— كلود لورانس خارج بيته ! ولابسا معطفا اشقر . بالنجاح المسعى

وما هي الا برهة حتى وقفت العربة في الشارع المطلوب فنزل الرجل منها وصرف السائق وانتظر ذهابه ثم عدا الى الشانزليزيه واقترب من قصر كلود وتسلق السور وصوت صوت البومة فسطع شعاع احمر في أحدى النوافذ فاتجه نحوه مسرعا

صعد الى تلك الغرفة واذا بجنفياف واقفة مضطربة حتى اذا ما هبط اليها ضمها الى صدره وقال

— فلنسرع . الوقت اثمن من ضياعه هكذا . سنسعد طويلا

— ولمَ كان هذا الغياب يا ماريوس

— لصالحك وصالحي . اسمعي . ذهبت اليوم صباحا الى ليون ورجعت منها في قطار الساعة التاسعة مساء

وصبحني فيه البير

— البير لورانس . شقيق كلود . .

— نعم . نعم . الا انه لن يطأ ارض باريس الا محمولا على آلة حدباء

— أقتلته

— قلت لك اسمعني فالوقت ضيق . نعم قتلته وما ذلك الا ليؤخذ اخوه بجريرته فتخلصين منه ولا وزر عليك . هاك المعطف والقفاز اما الآخر فهناك بجانب الجثة . اذا جاءتك الشرطة غدا للاستفهام فدبري اية وسيلة حتى تأتيهم بالمعطف والقفاز في جيب والرسالة المرسلة من البير في جيب آخر . . افهمت . . . ان أقل خطأ يربك عملنا ويوقعنا

— يارباه . لاتخف فسأفعل . . ان هوالك يشدد قواي وان حب خلاصي من ذلك الرجل يسهل عليَّ كل عمل

— اذن فالى الملتقى

— أهكذا سريعاً

— ألا ترينه داخلاً . آه فاتتني عبارة . . . ضعي معطفه هذا الذي معك مكان معطفه الذي يحمله الآن حتى لايشتبه

في أمرك عند احضارك المعطف للشرطة

— سمعاً يا حبيبي

وهكذا تمت المؤامرة وفاز الباطل بالنصر الاول

الفصل السادس

(اكتشاف الجريمة . التحقيق . القبض)

وقف القطار المقل لألبير والرجل المجهول في محطة باريس حوالي الساعة الواحدة صباحاً فجرى نحوه الحمالون وجاء موظف الرصيف يفتح أبواب العربات ويفتشها حتى اذا ما وجد رجلاً أضناه التعب في تلك الساعة المتأخرة من الليل فكتفه الكرى أيقظه وهداه السبيل الى الخروج

طاف هذا الموظف بتلك الابواب حتى اذا ما وصل باب غرفة ألبير وكاد يمر بها استوقفه منظر رجل مكبي على وجهه الا ان الظلام حال دون رؤية شيء آخر فصعد اليه وقد ظنه رجلاً غلبه النوم أو فعلت برأسه بنت الحان فلم يعد يقوى على مدافعة الكرى بتلك الحالة . صعد اليه الرجل ومد يده الى كتفه كي يوقظه فأصابت يده مادة لزجة ارتعد منها ثم

وجهها نحو المصباح فاذا به يرى دما . فصاح والرعب يلعب بصوته

— اليّ اليّ . قتيل في الدرجة الاولى . . . ايها الحمال ناد رئيس شرطة المحطة . . وانت . عليّ بموظف القطار

وما هي الا لحظة حتى حام حول المركبة عدد غفير من الرجال بعث بهم حب الاستطلاع والاستكشاف . فاشرأبت الاعناق وتزاحمت المناكب الا ان صيحة رئيس الشرطة أوقفتهم عند حدّهم فلم يتقدموا خطوة

دخل الشرطي الغرفة فرأى رجلاً عليه آثار النعمة والترف لبس لباساً فاخراً ملقيا على وجهه في أرض الغرفة وحوله بقعة من دم كادت تتجمد فقال

— عجباً . لست أرى دلائل السرقة وآثار النهب . هذه ساعته وهذا خاتمه وهذا كيس نقوده مفعم بالمال وكلها في أماكنها لم تمس . اذاً فما غرض الجاني . . . عليّ بالطبيب

فدخل الطبيب توا وكان قد حضر بناء على ماسمعه من حدوث تلك الجريمة وفحص الجثة فحصاً دقيقاً ثم قال بعد برهة

— قد طعن الرجل طعنة واحدة أصابت القلب فمات ولم ينفه بكلمة . مات عقبها تواً . وأؤكد تلك الجريمة حصلت حوالي الساعة العاشرة مساء

— عجباً والله . هيا ايها الحمال وانت فاحملاه ولا تتركا شيئاً هنا . دعوا كل ما في جيوبه على حاله حتى يراه قومسيير البوليس . . . . . ماهذا . قفاز . واحد فقط . . ألا ابحثوا عن القفاز الآخر

— ليس من قفاز سوى هذا يامولاي

— حسناً . ضمه الى حقيبته وهيا فاتبعوني

ولم تمر لحظة حتى ساد السكون في المحطة وذهب كل الى عمله

. . . . . .

لم تكد الساعة تدق سبعا في صباح اليوم التالي حتى كان رئيس الشرطة متبوئاً مقعده في قسمه يقلب بين يديه تقارير عماله عن الجناية التي حدثت في القطار وأمامه الاوراق التي وجدت في جيوب القتيل وكل ما وجد حول الجثة عند اكتشاف الجريمة

جعل يقرأ الاوراق بدقة فعلم منها اسم القتيل واسم أخيه وسبب مجيء الاول في تلك الساعة المتأخرة من الليل

ثم جعل يقلب القفاز بين يديه ويدقق النظر فيه ويقول

— انه ثمين ولا يملكه الا الاغنياء . انه الشاهد الوحيد الذي أرجو به معرفة الجاني . ولكن أنى لي به ولا أدري عنه شيئاً ...

ثم قرع جرساً على منضدته وقال للجندي الداخل

— هل حضر الشهود

— نعم يا مولاي . وقد حضر موظف رصيف ليون بدعوة منا كما أمرتم وها هو بالانتظار

— عليّ بهم جميعاً . . قف . . اين وضعتم القتيل

— في الغرفة المجاورة يامولاي حتى يصرح بدفنه الطبيب

— اذهب واحمله مع رفيق لك ودعه على هذا المقعد الطويل . ثم عد عليّ بالشهود

فامتثل الجندي وذهب ثم عاد ورفيق له يحملان جثة القتيل وهو مسجيّ بقطعة من قماش أسود . ثم عادا ليأتيا بالشهود وما هي الا فترة حتى دخل الطبيب وموظف رصيف

ليون وموظف رصيف باريس ورئيس شرطة تلك المحطة

فقال رئيس القسم

— من منكم موظف رصيف ليون

— انا يا مولاي

— وماذا رأيت . وبماذا يمكنك أنارة سبيلنا في هذه الجناية المبهمة

- لا رأي لي في الامر ولكني سأسرد عليك ما وقع . كنت على رصيف ليون في انتظار القطار وقبل ان يدخل القطار المحطة سألني رجل ألفت نظري اليه شدة تكتمه وكثافة لثامه عن ميعاد قيام القطار من ليون وعن ميعاد وصوله الى باريس فأجبته ثم مضى الا اني بقيت ناظراً اليه أعجب من حجابه لوجهه وحبه للتكتم وهو كما أظن غني

— غني ! وكيف أدركت ذلك؟

— بنظري الى معطفه الصوفي الاشقر الثمين والقفازيه الابيضين وقلّ ان وجدت مثلهما في يدي رجل قبله

— أو تعرف القفاز اذا نظرته

— نعم يا مولاي وان لم أكن مخطئا فهذا هو الذي أمامك

— أتتبين صوته اذا سمعته

— كلا فقد كانت مخاطبته لي قصيرة ثم تخللها دوي القطار وهو قادم . ولا سبيل الى معرفة وجهه وقد فلت انه شد بقبعته على عينيه وكان الوقت ليلا والمكان مظلماً

— حسناً . ان شهادتك ليست تخلو من فائدة فشكرا لك اذهب

ثم نادى بموظف رصيف باريس وسأله فقال

— لي عادة ياسيدي ان امر على ابواب العربات خصوصاً في تلك الساعة المتأخرة من الليل حتى اذا ما وجدت نائما ايقظته او عملا حملته الى دار الراحة حتى ينبثق الصباح . فقمت بخدمتي الليلة الماضية ومررت على ابواب العربات افتحها حتى وصلت الى غرفة القتيل وفتحت بابها وهممت بمداومة المسير واذا بي ارى منظرا تقشعر منه الابدان رأيت رجلاً مكبيا على وجهه في ارض الغرفة ورأيت حوله الدم قد تجمع فصحت في طلب رئيس شرطة المحطة ولما جاء

انتهت مأموريتي وذهبت الى عملي

ثم ذهب ونودي برئيس شرطة المحطة فقال

— اني وجدت القتيل ملقى في ارض الغرفة ولم الاحظ فقدان شيء منه . ولذلك فاني ارى ان الباعث على القتل غرض آخر غير السرقة و . . .

دعنا مما تراه . وقل ما شاهدته

— ثم وجدت حقيبته لم تمس ومفتاحها في جيبه وعندما هممت برفع القتيل وجدت قفازا . وانا مؤكد ان هذا القفاز قفاز الجاني

— ولم تأكيدك

— لاني رأيت قفازي القتيل في جيب معطفه الداخلي ولا يعقل انه يحمل زوجين من القفافيز في سفر . . .

— كفى . . . . . وانت ياحضرة الطبيب ما تقريرك الطبي عن حالة القتيل

— كان القتل بطعنة واحدة من خنجر او مدية عريضة النصل مدببة الطرف اصابت القلب فلم يفه بعدها الرجل بصيحة اذ جاءت الضربة محكمة قاتلة . . واؤكد ان القتل

حدث حوالي الساعة العاشرة مساء

— حسنا ياسيدي . وشكرا لك . . . . . والآن هاأنا ذاهب الى منزل أخي الفقيد حتى اتلطف في اخباره بقتل أخيه ولا نفاجئه بمثل هذا الخبر دفعة واحدة . . فليبق هنا حارسان للجثة حتى اذا ما وصل الخبر الى الاخ ارسلنا في طلبها الى منزله حتى تشيع بجنازة لائقة بشرف الاسرة . اتبعني ياموريس . . .

فتبعه مساعده وكان من احذق رجال هذا القسم

. . . . . .

في ذلك اليوم نفسه اصبحت جنفياف وقد تلطفت في القول والمعاملة مع زوجها كلود وصارت تتدلل عليه وهو لا تسعه الدنيا لفرط سروره وغبطته

ثم قالت له وهي تناجيه

— اين كنت البارحة يا كلود . اني انتظرتك طويلا ولم تعد حتى سئمت السهر ونمت حوالي الساعة الثانية وانا بانتظارك

— بانتظاري . يالي من سيء الحظ . . خرجت البارحة

الى قهوة السلام علي اجد بها احداً أضيع معه الوقت وقد كرهني في الحياة هجرك فلم اجد انسانا فذهبت أرود النواحي على قدمي مدة طويلة حتى انهكني التعب فعدت ثانية الى القهوة وقد قربت الساعة من منتصف الثانية وهناك شربت قليلا من معتق الخمر ثم عدت . لا بأس ياجنفياف فلست أدعك بعد . يالله ماأرقّ فؤادك واطيب قلبك واجمل مرآك

ثم تناولا طعام الافطار وهي في ضحك معه ومزاح حتى كاد الرجل يغيب عن رشده من ذلك الانقلاب الفجائي وحمد الله في سره على هدايته لامرأته ورجوعها اليه

وبينما هما في قاعة التدخين وقد لذ لهما الكلام والعتاب دخل خادم يحمل بطاقتي رجلين بالباب يطلبان الامتثال . فقرأ كلود البطاقتين وقال

— مسيو جول ميشيل . والمسيو موريس لوستان . الشرطيين ! . وما بهما وماذا دعاهما للمجيء ؟ . . . . حسنا هأنا حاضر

ثم قام يريد قاعة الاستقبال وصحبته امرأته اليها وقد

كادت تتسرب اليها الرعدة الا انها تماسكت وسارت شامخة الرأس أنفة واستعظاماً

دخلا القاعة فوقف الرجلان يحملان قبعتيهما بيديهما وحييا الزوجين فجلس كلود امام جول رئيس القسم وانتبذت المرأة مكانا بالقرب من مساعده موريس وعلى بعد من زوجها

ثم بدأ كلود بالحديث فقال

— لماذا شرفتماني يا سيديّ في مثل هذه الساعة . لعل السبب خيراً

— علمنا انك مريض اولا ياسيدي فجئنا لعيادتك . ولكننا لما رأيناك بصحة تامة أحببنا اخبارك بحادث مؤلم يشق علينا والله ان نكون اول مخبريك به

وقال مساعده

والحمد لله اولا على صحتك يامولاي

— لقد ازعجتماني ياسيديّ . لست مريضا والحمد لله . وكيف علمتما بذلك . ثم ما هو هذا الخبر المؤلم . لقد حيرت وايم الله في امركما . الا خبراني . .

— مهلا ياسيدي فقد علمنا خبر مرضك من رسالتك لاخيك

فتجهم وجهه وقد ظنهما مرسلين من قبله لقبض المال او لمقاضاته بالدين فقال

— ياله من شقي .

فغمز موريس باحدى عينيه وقال

— نعم شقي . الا رحمه الله رحمة واسعة

— العله مات . — وقال هذه الجملة بنبرة الارتياح والفرج

فزادت شكوك الشرطيين لذلك وقد تغلب عليهما الارتياب

وصاحت المرأة بصوت محبوس خافت

— ألعله فعلها . واهاً له !

— من هو ياسيدتي

— ماذا . لم اقل شيئاً ياسيدي

— اسمع ياسيدي . قد وجد اخوك الليلة قتيلا في احدى عربات السكة الحديدية القادمة من ليون . وكان

سبب حضوره رسالتك المرسلة اليه تقول فيها بانك مريض

— قتيل : اخي وجد قتيلا ! الا رحمة الله عليك يا البير.

قتيل : آه ياربي لم اكن ارضي له هذه النهاية . . . . . واين هو ياسيدي حتى أبكيه وأندب سوء حظي فيه

ثم شهق بالبكاء والعويل

فقال موريس بصوت خافت

— يالك من شيخ ممثل برعت في فن التمثيل كما برعت في التصوير ولا عجب

ثم قال لكلود بصوت رنان

— اتتنازل باخبارنا عن المكان الذي حواك ليلة البارحة ياسيدي

— المكان الذي حواني . ماذا تقصد . العلك تشك !!

— لا شك ولا تأكيد . انما هو سؤال الجأتني اليه وظيفتي وخدمة سيدي الرئيس

وقال هذا

— ارجوك ياسيدي اخبارنا عن المكان الذي كنت

فيه البارحة ليلا حتى نكون على بينة من امرنا . . . ليس في الامر شيء وانما هي عادتنا كثرة السؤال والالحاف فيه . لحاها الله من عادة

— أين كنت البارحة . كنت . . . كنت . . . . . لست أدري . كنت أهيم على وجهي في جوار الشانزيليزيه ثم يممت نحو النهر وعدت نحو قهوة السلام أخيراً

ـ وفي اي وقت عدت اليها بالضبط ياسيدي

ـ حوالي الساعة الاولى والنصف صباحاً . ولكن لم هذا الالحاف

ـ لا شيء . لا شيء . . . . . ولكن برد البارحة كان مشهوداً أو كنت تسير في تلك الشوارع (ولقد لفظها باستهزاء) بدون معطف على الاقل

ـ نعم كنت لابساً معطفي ياسيدي

ـ أتتنازل بالامر بأحضاره

فتصدت المرأة وقالت

ـ انا ذاهبة بنفسي لاحضاره ياسيدي حتى أعلم ما يكنه

ضميرك نحو زوجي الحبيب

وذهبت الخائنة وعادت بالمعطف الاول بعد ان وضعت فيه القفاز والرسالة

فلما رآه الشرطيان تجهم وجههما واتخذا هيئة الجد في القول وقالا له

ـ أهذا معطفك الذي كنت تحمله أمس

ـ نعم . أوفى ذلك غرابة . . . يالله من كثرة السؤال وشدة التكتم

فصاح موريس في اذن رفيقه

ـ معطف من صوف أشقر ...ماهذا . القفاز الآخر. انظر ياجول. يا لجهل الجاني. لقد حاق به مكره السيء . . . رسالة . . . انظر ياجول وقل لي ماهي

ـ ماذا تفعلان ياسيدي . وما هذا الهمس وما هذه الاسرار .

ـ رسالة من القتيل يطلب رد عاريته . . . مائة الف فرنك . . . حقاً انه مبلغ يدعو الى الجريمة

فصاح كلود بصوت وحشي يتهدج

ـ الجريمة . . . ماذا تقولان . . . لست أفهم شيئاً . . . أوضحا لي والا وأيم الله .....

فصاح به رئيس الشرطة وقد وقف وقفة السيد القوي

ـ كلود لورانس . لم يبق شك في أجرامك بعد ان رأينا محرك الجريمة والباعث القوي عليها . . . كلود لورانس باسم الجمهورية والعدل اقبض عليك كقاتل اخيك

وصاح به موريس

ـ قابيل . ماذا فعلت باخيك

وصاحت المرأة وقد خفق قلبها وارتعدت عروقها

ـ اتركاه ياسيديّ فهو بريء . بريء ورب السماء . . . أكلود قاتل . . يارباه . . اليّ اليّ . .

وطوّحت بيديها وسقطت تحت تأثير الاغماء الكاذب

وصاح المنكود

ـ انا قاتل . أنا مجرم . انا قاتل أخي . . . دعوني . . . اذهبوا عني . . يالله . أنا متهم بقتل أقرب الناس وأحبهم

بعد زوجتي الي . . ماذا تقولان . . قاتل . . . يا للخطل ويا للعار . . . .

ثم نكب مغمياً عليه . وقد وجد الشرطيان ذلك فرصة سانحة لاغلال يده وقيادته الى السجن . . .

وهكذا ذهب التعس ضحية حبه لامرأته حباً أعمى

تم القسم الثاني

openkandl.com

القسم الثالث ✲ الوفاء

الفصل الاول

﴿ صدى الجريمة ﴾

قامت باريس وقعدت بسبب القاء القبض على كلود لورانس وكل يعلم ما لهذا الرجل من الصيت الحسن والذكرى الطيبة . صار الناس بين مصدق ومكذب لما اتهم به هـذا الرجل البريء . وتهافت القوم على قصره ابتغاء تعزية قرينته في مصابها وتشجيعها على احتمال المكروه والصبر على الالم

كان أول الوفود عليها ولا شك ماريوس خليلها زارها هذه المرة جهاراً وقابلها امام حشمها مقابلة نبيل كريم المحتد وقصر من زيارته لها حتى لا يشتبه أحد في امره . فأن خلا بها برهة طفح محياه بشراً وسعادة . .

ظهرت في مساء ذلك اليوم الجرائد وطنطنت كما هي عادتها في كل أمر غريب وحادث كبير وظهرت الملاحق

وصرخ بها الغلمان ولم تمر بضع ساعات حتى كانت كل فرنسا على علم بالجريمة والقبض

. . . . . .

اصبح مارسيل في اليوم التالي واراد تناول طعام الافطار قبل القيام بعمله فنادى خادمه لوسيان فأقبل هذا وعلى وجهه معالم السعادة والغبطة فسأله احضار الطعام فذهب ليجهزه

مضت الايام على لوسيان الخادم وهو في خدمة مولاه الطبيب ومنقذه من الردى وهو صادق في عمله معترف بجميل سيده نحوه ولا يرى الا ان يتيح الله له فرصة يفتدي سيده بنفسه قياماً بحق الوفاء له

وشعر منه السيد بهذا الشعور فقربه اليه واحسن أجره وأغدق عليه النعم حتى بات الخادم يبكي كمداً لعدم قدرته على رد الجميل لسيده ومقابلة احسانه بمثله . واكتفى بان راعى سيده مراعاة الام الحنون يرافقه في روحاته وغدواته يمنع عن سيده الاذى والسوء اذا ما تعرض لهما . يسهر ليله بجانب غرفته ويقوم نهاره بخدمته قياماً يحمد عليه . . كل

ذلك ويرى نفسه مقصراً في اداء الواجب والاعتراف بالجميل

عاد لوسيان يحمل طعام الافطار لمولاه ووقف امامه موقف الخاشع يرمقه بعين الحنان والشكر الجزيل

حتى اذا ماهم سيده بالاكل سأله

ـ أليس من بريد اليوم يالوسيان

ـ سأذهب يامولاي وانظر

ثم عدا بعد برهة ومعه جريدة (ايكودوباري) وقال

ـ ليس سوى هذا الجريدة يامولاي

فاخذها سيده ونشرها امامه وعاد يشرب الشاي الذي كان امامه

نظر الى الصفحة الاولى ثم طواها وفتح صحيفة الاخبار وجعل ينظر اليها نظرة اهمال الى أن استوقفه خبر خُط إعلانه بحروف ضخمة تستلفت الانظار فقرأ

« جريمة قتل في قطار ليون »

« القبض على الجاني »

فقال

ـ عجبا وما هذه الجريمة ياترى

ثم تابع القراءة واذا به اصفر ووهت قواه وسقط كأس الشاي من يده فتحطم . رقصت الحروف امام عينيه فلم يعد يرى . دوت اذناه بطنين حاد . واحس بدوار مادت به الارض تحت قدميه وصاح بصوت مزعج

ـ عمي مقتول . ياللشقاء . الا شلت يد القاتل . . .

من هو

دخل عليه خادمه فرأى منظر سيده فارتعد واجفل واقبل عليه وهو يضطرب وقال بصوت متهدج

ـ ماذا بك يامولاي . الا خبرني بحقك ما الخبر

ـ خذ . خذ هذه واتم قراءتها . . . لست اقوى على القراءة بعد . . عمي مقتول . . . ويل للجاني . . . اقرأ ياالوسيان واتم الخبر فقد ضل صوابي ولم اعد افهم . . . . . اخبرني من هو الجاني فلا بد انه مذكور اسمه هنا . . . .

قل من هو

اخذ لوسيان الجريدة ولم يكد يتصفحها حتى قرأ : ـ

اكتشف موظف رصيف محطة باريس جريمة هائلة
« تقشعر منها الابدان . الا وهي جثة رجل مقتول بخنجر
«اصاب قلبه من اول طعنة فمات شهيد الغدر والغيلة . . وقد
«وجد بجانب الجثة قفاز واحد قد سها عنه الجاني فكان خير
«مرشد اليه . ولم يرد الله ذهاب دم القتيل (ـ وقد علمنا
«فيما بعد انه المسيو البير لورانس المتمول الشهير وصاحب
«مصرف ليون بتلك المدينة ـ) هدرا . . فانه عند ما اراد
« مأمور القسم الذهاب الى قصر اخي القتيل المسيو
« كلود لورانس لانبائه بهذا المصاب المؤلم رأى هناك في
«جيب ردائه الخارجي القفاز الآخر وهو عين القفاز الذي
«وجد بجانب الجثة . .ولما قويت الشكوك في نفس الشرطي
«القى القبض عليه واودع السجن تحت ذمة التحقيق

«وبلغنا فيما بعد ان المحرك الاصلي لتلك الجريمة رسالة
«من القتيل الى القاتل يسأله سداد دينه البالغ مائة الف فرنك

«وعند سؤال قرينته قالت بانه لم يعتد الخروج ليلا من
«منذ اربعة اشهر ولكنه خرج في الليلة الماضية وعاد حوالي

«الساعه الثانية صباحاً لابساً نفس الرداء الذي وجدت به
«الرسالة والقفاز . . . فكانت شهادتها اقوى دليل على ادانته
«وانا احتراماً لجليل قدر هذه الاسرة نرى من الواجب
« الاغضاء قليلا عن معاودة ذكر هذه الحادثة حتى يكشف
« عنها القناع شرطة باريس »

فصاح لوسيان بعد ان اتمها

ـ باللشفاء . ويالللغدر . اتدري من هو القاتل ياسيدي . اتدري من الذي وقع عليه خطأ هؤلاء القوم فأوقعوه ظلما تحت طائلة العقاب واقسم انه لبرىء . . . . اتدري من هو . . آه

ـ من . من يالوسيان

ـ هو ابوك يامولاي

فهب من مقعده وقد قلب المنضدة بما عليها وصاح بصوت عصبي

ـ أبي . . ألملك معتوه . أبي القاتل . أبي القاتل . ما هذه المصائب المتوالية عم يقتل وأب يؤخذ في جريرته .

اي القاتل . . . . أرني . . أرني اسمه . . لعل صوابك قد ضل فقرأت خطأ

ـ ليتني كنت كذلك . ولكنها الحقيقة المؤلمة يامولاي

مر مارسيل بنظره على اسم القاتل ثم شهق بالبكاء ووهنت قواه فهوى راكعاً وقد تاه بصره وانعقل لسانه . . اختلج بدنه وارتعد جسمه فلم يعد يقوى على التنفس وخر مغشياً عليه

فأسرع لوسيان وقد ضاقت به السبل وجاء سيده ببعض المنعشات وحل ازرار قميصه ودلك صدغه حتى فتح المسكين عينيه وقعد على مقعده بفتور وقال

ـ ماذا حلّ بي . آه ماهذا الحر الشديد . اكاد اختنق . لوسيان ماذا بي حتى ارى نفس مطروحاً على الارض . . . هه . تذكرت . . الجريمة . . القتيل عمي . . والقاتل ابي . . . يا للشقاء ويا للعار ويا لفقدان الشرف

ـ قلل من حزنك ياسيدي . فما ابوك الا مظلوم اخذ بجريرة اخيه خطأ واقسم لك انه سيخرج بريئاً . وليس هو

بأول بريء ذهب ضحية خطأ القضاء حتى اذا ما انقشعت غيوم الخطأ عن الحقيقة رد اليه شرفه وخرج شامخ الرأس

ـ نعم ان أبي لبريء . و قسم على ذلك . ولكن اين ابن لى بالبرهان وانا بعيد عنه ولا ادري شيئاً مما حصل . آه تباً لي من عاق ترك اباه وهو في حاجة اليه . آه بل تباً لها من شقية خائنة ساعدت بشهادتها على الصاق التهمة به والصاق العار بشرفه

ـ لى رجاء أرجوك تحقيقه يا مولاي . واقسم لك باني سأعود بالقول الحق . دعني افعل ما اشاء مدة اسبوعين وبعدها تعلم ان كان اباك مجرماً سفاكا للدماء . او بريئاً ذهب ضحية خطأ القضاء . وسأعود اليك باسم الجاني الاثيم حتى نقوده الى مصرعه الوخيم

ـ وماذا أنت فاعل يالوسيان . آه يارب قوة من لدنك واحتمالاً

تعلم يا مولاي ولا شك ان هناك مثلاً فرنسياً يقول « ابحث عن المرأة فهي محور كل عمل ان خيراً أو شراً »

وانا قد جعلت هذا المثل مرشداً لى في هذه المأساة

ـ تعني جنفياف امرأة ابي

ـ لست اعني احداً . كنت لصاً ولا فخر وسأعود لصاً . ولكن شتان بين اللصين . . . . . سأسعى واجتهد وثقتي بالله عظيمة . . . . انقذت حياتي من الموت ولم تكن حياتي بذات قيمة . اما انا فلا تهذن شرفك من العار او يراق في سبيله دمى

شكراً لك من صديق صادق . اذهب . اذهب وفقك الله

ـ لي رجاء آخر اتقسم لي على تحقيقه

ـ نعم اقسم لك فما هو لم اكن لارد طلبك واخيب رجاءك

هو ألاّ تلقى بنفسك في تيار الحزن والاسي . دع الامور تجري مجراها والله يعلم اين يكون مرساها

ـ سأفعل . فاذهب وفقك الله وشكر لك سعيك

وهكذا ذهب هذا الوفيّ في سبيل الاعتراف بالجميل وراء البحث عن الحقيقة والاتيان بالدليل

الفصل الثانى

﴿ خلا لك الجو فبيضي واصفري ﴾

لم يكد قصر كلودلورانس يخلو من الزوار والعواد في الثلاثة الايام التالية للقبض عليه . فمنهم من جاء يتزلف للحسناء بتعزيتها في مصابها ومشاركتها في حزنها ومنهم من جاء مستفهما عن الحقيقة معلنا دهشه من سماعها ومنهم من جاء يتنسم الاخبار ويقتفي الآثار وجل هذا النوع من الزوار مكاتبو الجرائد ومخبرو الصحف

ثم تناقص الزوار وانقرضوا ولم يبق من عائد لتلك المرأة الا خليلها ماريوس رب عصابة اللصوص ومدبر الجريمة ومرتكبها

عادها خليلها جهراً وجعل القصر مأواه وأعد جناحاً منه لسكانه وصار الخدم يحسبونه قريب سيدتهم زارها في ايام شدتها حتى يخفف من لوعتها ويؤنسها في وحدتها فغفلوا عن البحث في هذا الامر وخدموه خدمتهم لرب القصر

خلا الجو للعاشقين الأثمين بعد ان دهورا رجلا بريئا والقيا به بين براثن العار والسجن وطاب لهما المقام ولذت لهما الحياة في قصره والتنعم في ماله . لم يخفق فؤادهما شفقة عليه ولا رحمة ولم يشعرا من نحوه بحنو ولا رأفة . بل سرعان تناسيا امره وغفلا عن ذكره وعاودا حديث الحب ومطارحة الغرام

أغدقت المرأة على خليلها بالمال ولم تصن عنه نفسها ولم تحبس شرفها بل اسلمت اليه مقاليدها وركنت اليه كل الركون وصارت له أطوع من البنان وأخضع من مستأنس الحيوان

قضى الشقي وقته الطويل في بث غرامه حتى قضى منها كل مرامه . ولم يزل يطلب المزيد وهي لا تبدي بغير ارادته ولا تعيد

نفرت الخائنة من ارتياد الملاهي واجابة دعوات الحفلات والمقاصف وفضلت البقاء في قصر يأواه خليلها أو في مكان يقيم فيه بطلها

كانت تعيد على مسمعه من آونة لاخرى جملتها

— لم أكن أحلم بهذه السعادة يا ماريوس . بعد ما ألقى بي الشقاء بين يدي هذا الرجل مدة طويلة . . . ألا أف له من سمج وحمداً لله على تلك الحرية

— وعلام معاودة ذكرى هذا الرجل وقد ذهبت ريحه وعفت آثاره .

— ولكن ماذا تم في شأنه ياترى .. ألم يحكم عليه بعد

— يا لكِ من سليمة القلب . لا بد من مرور بعض الزمن في الرسميات الاولية التي يتبعها القضاء ثم تتبعها المحكمة فالحكم ولا اظنه غير الاعدام

— أو تطول مدة هذه الرسميات

— لا . قد لا تزيد عن الاسبوع او ما يقاربه . . . . ولكن بالله دعينا من ذكره فلسنا هنا في مقام النيابة ولا في مراكز الشرطة

— ولكن لا بدّ من دعوتي كشاهدة في المحكمة فماذا أفعل . لا أزال ضعيفة القوى واهية العزيمة

— إياكِ ان تزيدي حرفاً أو تنقصي حرفاً مما قلت في أول مرة لئلا يتسرب الشك الى نفوسهم وفي ذلك الطامة الكبرى

— وماذا قلت في اول مرة . . . لست أتذكر تماماً

— يا لك من ساذجة . وماذا تقولين غير انه خرج ليلة الجريمة ولست تعلمين الى أين ثم رجع حوالي الساعة الثانية صباحاً فقابلته وسألته عن غيابه فلا تذكرين ماذا أجابك بالدقة ولكنك فهمت منه انه مرّ بالشوارع الى النهر ابتغاء النزهة ثم عاد .

— والمعطف والقفاز

— دعي ذكرهما الا اذا سألوك . ولست أراهم يسألونك عنهما وما من داع الى ذلك . أحضرت المعطف بناء على أمر رئيس الشرطة فجئت به وانت لا تعلمين ما بداخله

— والرسالة

— أراك تودين ايلامي . أية رسالة . أنك لا تعلمين شيئاً عنها بالمرة

ـ أو انكر انه أراها لي من قبل

ـ نعم . لئلا تتطرق اليهم الريبة . أفهمت

ـ نعم . يا لله . ان الوطأة شديدة . ولكن وراءها السعادة الدائمة

ـ دعك من هذه السفاسف وهلمي بنا الى النزهة

وقاما يمران بمماشي الحديقة وكل منهما في لهو وفي طرب حتى اذا ما خيم الليل وكاد يعم الظلام استأذن منها يريد الانصراف وقال

ـ انا ذاهب الى مأوى العصابة الآن لأرى أفرادها فقد طال عليهم غيابي وأخشى شقهم لعصا الطاعة

ـ ألا تأخذني معك يا ماريوس

ـ سآخذك معي ولكن ليس الآن . وسيكون استقبالك فخماً وذلك بعد بضعة ايام حتى ينتهي الحكم على الشقي وننتهي من أمره بتاتاً

حسناً أيها الحبيب وعد اليّ قريباً

فضحك وقال لها

ـ لم يبق بعد ما يؤلمك. «خلالك الجو فبيضي وأصفري»
ثم شيعها بقبلة وتركها وانطلق

الفصل الثالث

(في السجن)

افاق كلود لورانس من اغمائه فشعر بصداع في رأسه فحاول مد يده اليها فلم تطعه يده وأحس بقيد يحيط بمعصمه فصاح وقد هلع فؤاده

ـ يا ربي . ما هذا . قيد ! ... وأين أنا ... سجن ! أمسجون أنا ومقيد ! . يا للتعاسة ونكد الحظ

ثم صاح بصوت رن صداه في جدران الغرفة وخرج منها كدوي الرعد

ـ كيف سجنوني . ولم . ما هـذا الابهام والتعقيد . أتراني جننت حتى أرى الاشياء على غير حقيقتها ... أم أنا في حلم مريع ... كلا لست حالماً . وقد أكون مجنوناً

فدخل السجان ومنظره تنبو عنه الابصار وصاح يخاطبه

وقد اجتهد ان يلطف من صوته الخشن

- كفاك يا سيدي ايذاء لنفسك وارهاقاً لها وانت ضعيف البنية كبير السن . كفّ عن الصياح فليس ذلك يجدي

- من أنت . وأين أنا . ولم أنا هنا ... ولما هذا القيد في يديّ . ولماذا ...

- عفواً . عفواً . وأين لي ان اتذكر سؤالك الاول لاجيبك عليه وأنت تنهال عليّ بالمسائل . حلماً يا صديقي وتأس

- ألا ما خبرتني بحق أولادك وزوجتك لماذا انا هنا ... قد ضاع رشدي وفقدت الذاكرة ولست أدري ما تمّ لي قبل ايداعي هنا

- ولكن لعلك تدري ما تم منك

- وماذا تقصد . الا أفصح فليس الوقت وقت ايهام

ثم حملق بعينيه وقد احمرتا غيظاً وتقطب جبينه وارتعد بدنه وصاح بملء فيه وقد لعب الغضب بصوته أي لعب

- بل قف . . اني اتذكر وياليتني فقدت الذاكرة . . بل ليتني كنت مجنوناً فما لذة العيش الا للمجانين

ـ ربما جاءتك النوبة عندما فعلتها

فصاح به وكاد يفلق جدران الغرفة من قوة صوته وتقهقر السجان وقد خشى على سمعه ان يذهب

ـ أعد ما تقول ايها الشقي . فعلتها . . . آه الجريمة . . . أنا مجرم . . . آه من لى بدماء من اتهموني ومن رموا بي في هذا الكهف المظلم مكبلا . . . آه . أخي . . . . البير . من لى بمن ينشرك من موتك ويعيدك الى الحياة فتذكر لهم اسم قاتلك وتصيح في وجوههم ان اتركوا أخي ان هو الا برئ . . أأنا اقتل أخي الا لعنة الله كل ماكر خداع وغبي أبله . . . ايعجز شرطة باريس أم التمدين ومنبع الحرية عن اكتشاف القاتل واقتناصه ويلقون بي في السجن انا الشيخ الفاني وانا برئ

ثم بكى طويلا ورفع الى السجان بصرا تائها وقال

ـ اتدري ايها الرجل من أنا . أنا كلود لورانس . وكل يعلم مالي من حسن السمعة وطيب الذكري . أفيعقل ان يأتي مثلي مثل تلك الفظاعة . ويلكم أتتهمونني بقتل أخي . . أضاع رشدكم أم عدمتم الهدى

- رفقاً بنفسك يا سيدي . وهأنا ذاهب حتى لا أؤخذ بجريرة البقاء عندك طويلاً

ثم خرج وبقي المنحوس وحده معتمداً جبهته بيديه المغلولتين وظل تائهاً في مهامه الخيال هرباً من الحقيقة المؤلمة وخوفاً من تذكره موقفه في هذه الحالة . . . . الى ان عاودته الذكرى ثانية فصاح بصوت يتخلله البكاء

ألا رحمة بي يا قوم ورأفة . دعوني أقضي بقية أيامي في هدوء وراحة بال . ماذا فعلت يا ربي حتى يكون جزائي مثل هذا العقاب . حبسوا عني الزوار . منعوا عني زوجتي آه كيف انت الآن يا جنفياف وماهي حالتك . آه إني أرثي لها وهي في حريتها أفهل هي ترثي لي وأنا في مثل هذا المقام آه آه يا ترى ماذا تفعل الآن . . أسرها الخلاص مني وقد طالما تمنته . يا ترى من يشاطرها العيش الآن . . . . بالله أني أكاد أنسى نفسي وما أنا فيه ويكاد تطير رأسي شعاعاً اذا ما فكرت في انها تخوتي . . ألا من يأتيني بالنبأ الصادق عنها . . . . .

وعلا صوته بالبكاء والصراخ حتى همدت قواه فأغمى عليه

وفي تلك اللحظة فتح باب السجن ودخل مديره ووراءه السجان فلما رآه مغمياً عليه اسرع في أنعاشه حتى اذا أفاق قال له:

ـ لا تيأس من رحمة الله يامسيو لورانس. ولا يذهب أملك من رأفة القضاة بك. فصاح به الرجل

ـ او انت ايضاً. انت تصدق في مثل هذه التهمة ياسيدي. يالله. اترى العقل والرأفة رفعا من البشر كما ذهب العدل منهم

فتمتم المدير بصوت خافت

ـ مسكين

ثم قال له بصوت مسموع

ـ جئت اليك ياسيدي لانبئك بان محاكمتك ستبتدىء بعد غد وقد ارسلوني حتى تختار لنفسك محامياً يساعدك في الحصول على رأفة القضاة بك

ـ اذا كان الغرض من اختيار محام الحصول على رأفة حضرات قضاتك فانا في غنى عن ذلك. لست أريد محامياً

أفهمت . وان أعجز عن القيام بالدفاع عن نفسي ومنظري لا يدل على عكس ما سأقول . . وستراني يوم اخرج بريئاً وأقود بيدي المجرم السفاك وأقول لك كل له الصاع صاعين وأذقه مرارة السجن قبل ان يذوق مرارة الاعدام . هناك تراني لست مجرما كما انا في نظرك الآن

ـ لست عليما بتأويل الرؤيا ياسيدي . وكل ما كلفت به بلغتك اياه

ـ ولكن كلمة . . . اتخشون قوة شيخ فان مثلي وفي مثل هذا الكهف المظلم المميت فتكبلون منه الايدي والارجل

ـ الا قاتل الله الشيطان فقد انسانا حل قيد يديك عندما اتوا بك محمولا مغمياعليك عفوا ياسيدي فقد سهوت

ثم حل قيد يديه وتركه يتخبط في هذيانه حتى غلبه الكرى فنام

في تلك الساعة خرج لوسيان من بيت سيده وقد ولى وجهه شطر باريس يسأل الله هدايته سواء السبيل

الفصل الرابع

(تجسس وعودة الى المأوى)

في مساء اليوم التالي لذهاب ماريوس الى مأوى العصابة أي حوالي الساعة الثامنة كان رجل يمشي امام قصر كلود لورانس مشية الحذر اليقظ وجعل يحوم حوله حتى اذا ما أيقن من خلو المكان من المارة تم نحو الباب وتسلقه حتى اعتلاه ومن ثم انبطح على أعلى الحائط وجعل يزحف عليه ببطء وصبر عجيبين متجنباً أحداث أي صوت يوجب الالتفات والشبهة حتى اقترب من شجرة باسقة ومد يده الى فرع منها وتعلق به ثم تعداه الى غيره حتى اعتلى الشجرة فلم ير شيئاً يوجب بقاءه هنالك فقفز منها الى شجرة أخرى بجانبها ومن هذه وصل الى سور شرفة واقعة أمام القصر جعلها كلود مكاناً لتناول شاى الغروب فيه

كانت هذه الشرفة على رابية عالية تسلق عليها النبات فكساها حلة خضراء ترتاح العين الى منظرها والنفس الى

الاقامة فيها . كانت هذه الشرفة واقعة أمام غرف القصر التي تسكنها جنفياف فلما ان هبط اليها الرجل المجهول أخفى بظهره تواً خلف سورها ومكث كذلك مدة ليست بالقصيرة خشية ان يكون أحد قد أحس به وكان قد سمع همساً بالقرب منه . فلما أيقن بجهل المقيمين به رفع برأسه قليلاً وركع على ركبتيه خلف السور وصار يدقق النظر فيما حوله الى ان استوقفه منظر رجل وامرأة بالقرب منه يتكلمان همساً

كان الظلام حالكاً في الحديقة فكان من الصعب على المقيمين في القصر رؤية الرجل على الشرفة وبالعكس كان الامر سهلا على الجاسوس اذ أن هذين المتحابين كانا في غرفة أضاءتها شموع الكهرباء

أرهف الرجل أذنيه لالتقاط ما يفوهان به واذا به يسمع المرأة تقول

— ومتى تعود . . . بل متى تأخذني معك ايها الحبيب . ان نفسي تكاد تذوب شوقاً الى هذا المكان ولهذه الجماعة

— قد لا أعود الليلة يا جنفياف. أما عن ميعاد ذهابك فقد قرب

— لست انتظر الحكم بعد حتى أذهب . بالله هلا ما صحبتني اليه غداً

— أراك سئمت الانتظار . الا تنظرين يومين آخرين المحاكمة غداً والحكم بعده وفي مساء هذا أصحبك معي وأرئسك عليهم

— ما أعظم شوقي الى ذلك

كان الاثنان موليين ظهرهما جهة النافذة الا ان الرجل المجهول كاد يفضح نفسه بصيحة دهش واستغراب كتمها في نفسه وخرج الكلام من فيه كالتنهد

— ماذا أرى . جنفياف تأوي اليها خليلاً . لله درمن فاه بهذا المثل السائر الذي جعلته رائدي في اكتشاف هذا الابهام والتعقيد . . . . تباً لها من شقية خائنة . جحدت الجميل وكفرت بالنعمة

ثم حملق بعينيه اليهما وهما خارجان من الغرفة ثم صبر

برهة واذا به يراهما قد خرجا الى شرفة بها سلم ضخم يؤدي الى الحديقة ولم يكد الرجل يقترب من مصباح الشرفة فيعمه الضوء حتى شهق الجاسوس وصاح بصوت المخنوق

ماريوس رئيس تلك العصابة الدموية . . وخليل المرأة . . . أراني قد أدركت طرفاً من الحقيقة . كلا بل الحقيقة كلها . ألا ويل للاشقياء يوم تدور الدائرة صبراً ياقوم ان غداً لناظره قريب

ثم صبر هنيهة حتى اختفى الرجل وعادت المرأة الى القصر فنزل واتجه نحو السور الخارجي وارتقاه بحذر كبير حتى اذا ما هبط الارض تابع سيره وهو يقول

فلأ نتظرنّ قليلاً ثم أذهب الى وكرهم . فقد كنت منهم وسأعود اليهم . . . . . ولكن الويلُ لهم مني يوم اكشف عن عملهم الستار

. . . . . .

كاد الليل يؤذن بالانتصاف عند ماسمع العم جاك طرقاً على باب حانته فأسرع اليه وفتحه ولم يلبث ان قال الى القادم الملثم

— تفضل يا سيدي . أتريد شيئاً من الجمة

— كلا بل شيئاً من النبيذ

— يشق عليّ والله عدم أجابتي لسؤلك ياسيدي فقد فرغ هذا البرميل منذ أمس وهأنا بانتظار من بعثت في شرائه ولا أظنه يعود قريباً

ثم أتاه بكوب من الجمة ووضعه أمامه ووقف في خدمته فقال له الغريب بغتة

— ألم يأت الرئيس بعد يا عم جاك

فبهت الرجل وحملق اليه وقال له وهو يتلعثم

— وأي رئيس يا سيدي ؟ . أنا هنا رب هذه الحانة

— عجباً لك أو لم تعرفني يا جاك

ثم رفع لثامه عن وجهه فصاح العجوز صيحة الفرح

— لوسيان . لوسيان دوبال . اين كنت يا عزيزي طول هذه المدة التي قاربت السبعة الاشهر

— كنت . كنت ضيفاً على الجمهورية يا صديقي . ثم سئمت تلك الضيافة والحق يقال من منذ شهر فتركتها .

واشتغلت طول هـذه المدة بمهنة الغسيل (السرقة بلغة « آلارجو ») ولـكن سوء الحظ أوقعني على أناس أنظف من الصيني اذا غسل ها . ها . . . . . قل لي يا عم جاك كيف حال العصابة وكيف أخبار الرئيس فقـد بلغني انه وقع في حبائل الرداء الازرق . . أصحيح

— يا لهم من أغبياء . نعم وقع في حبائلهم التي هي أوهى من نسيج العنكبوت ولم يلبث طويلاً حتى أوقعهم في حبائله الشيطانية

— كيف

— قتل الحارس بعد أن رشاه وهرب

— وأين هو الآن

— هنا . ولا شك انهم سيهللون بقدومك أي تهليل

— اذن فاذهب وأخبرهم حتى ادخل اليهم

وقام العجوز يسرع في مشيتـه الى جهة البوق ذي الانبوبة وخاطب به القوم في مأواهم . ولم تـكن الا برهة حتى انشق البرميل عن لوح ترامى الى الارض فأسرع اليه

لوسيان وغاب عن النظر

والعم جاك واقف يرقب الممر ويقول

— يا لهم من مخترعين ماهرين . أترى من اخترع هذا الممر يقع في فخاخ هؤلاء البسطاء . . ها . . ها .

الفصل الخامس

(فلتة لسان)

كان جميع أفراد العصابة مجتمعين في ذلك البهو الفخم الذي جعلوه مأوى حصيناً لهم بفضل هـذا الممر السرى الذي يصل بينه وبين الحانة

كانوا جميعاً منصرفين الى المنادمة والرقص وقد ارتدوا بلباس السهرات الكبرى وكانت النساء بينهم يتهادين في مشيتهن وقد أفرغت عليهن أبهى الحلل وأثمنها

التفّ جمع منهـم حول الموائد يقامرون أو يعاقرون بنت الحانّ بينما التفّ جمع آخر حول الرئيس يتخاطبون معه بسكون وهدؤ وحام جمع ثالث حول الفتيات يراقصونهن

أو يغازلونهن

ثم انفرط واحد ممن اجتمعوا بالرئيس وانتحى ناحية مستورة من البهو وبها بوق كبوق العم جاك فهما سواء في الغرض منهما ولكن شتان ما بين الاثنين . اذ بينما الاول يراه الناظر لاول وهلة قطعة من العظم النخر انتبذت جانباً اذا بالثاني من عاج كسته طبقة من الفضة أكسبته بهاء الرونق وجمال المنظر

أمّ الرجل نحو البوق عندما طرق أذنيه صوت طنين كطنين النحل وألقاه على أذنه ولم يلبث ان صاح بالجمع ووجهه يطفح بشراً

— بشرى يا قوم . فقد عاد الينا لوسيان . هلموا هلموا الى استقباله فها هو قد حضر

فصرخ الجمع الا اربعة منهم ودوى بصوتهم البهو على رحبه

— مرحباً . مرحباً . هلموا الى استقباله هلموا

واسرعوا الى جهة الممر ووقفوا يرمقون هبوط اللوح

من صدر البهو بصبر ذاهب

اما الاربعة الذين لم يسرهم قدوم لوسيان فكانوا الرئيس وبرنار وجوتيه وبيساك وهؤلاء الثلاثة الآخرون هم الذين خدعوا لوسيان وذهبوا به الى ليون وحاولوا قتله من قبل

دبت اليهم الرعدة والدهشة من عودته الى الحياة وخافوا خيانته لهم بعد ما خانوه وغدروا به

وكان الرئيس على علم بما كان في نفوسهم تلك الساعة فقال لهم بصوت الآمر

— ما بالكم كالخشب المسندة لاتتحركون. أتريدون أن يلحظ امركم فيحتاط لنفسه ويلقى بكم الى التهلكة. هلموا الى استقباله كما فعل أخوانكم وأياكم والاهمال

فتمتم الرجال بكلام لا يفقه له معنى وانصرفوا بعد ما أخفوا ما بهم واختلطوا بالجمع المستقبل

وما هي الا هنيهة حتى هبط اللوح وظهر وراءه رجل واقف فاتح ذراعيه وألقى على القوم تحية حال دون وصولها

الى آذانهم ارتفاع صوتهم بالتهليل تحية لقدومه

ثم اختلط بهم وسار متجهاً نحو الرئيس وهم يحتاطون به ويسألونه عن سبب غيابه الطويل وهو يجيبهم والبشر يتدفق من وجهه حتى اذا ما اقتربوا به من الرئيس تنحوا قليلاً وداوم هو مسيره اليه وخاطبه مخاطبة الند للند

— أهلا برئيسنا البطل . لقد بلغني انك وقعت في شرك الشرطة . ها . ها أوَ غاب عنهم انك كالهواء لايحويه مكان واحد

— أهلاً بك وكيف حالك

— كما تشتهي العواذل وتأمل الحساد

— وكيف

— عملت كثيراً ولم أحصل على درهم . أليس ذلك نحساً

— وماذا عملت

— أما هذا فكثير . . . .

— وأين كنت تلك المدة

وصاحت العصابة

— نعم . نعم . أخبرنا أين كنت تلك المدة يالوسيان .
ارو لنا ما تم لك فنحن في شوق الى سماعه

فحول وجهه اليهم وهو جالس وقال

— انها حكاية طويلة تستلزم الوقت الكبير . . . . . عجباً لكم ما أسخاكم . ألا تقدمون لي كأساً من الخمر وأنا على ما ترون من ظمأ

فهرعت اليه برتا بكأس من الخمر وقالت

— عفواً يالوسيان . فقد ألهانا لقاؤك المفرح عن القيام بواجب الكرم نحوك . . . خذ هذا كأس وسأتبعه بآخر .

— لن أذوقه يا ذات الجمال حتى تمطره شفتاك بجرعة منه

فانحنت تريد جرعة من كأسه فاختلس من خدها قبلة فهددته بدلال بمروحتها وقالت

— يالك من خبيث

فابتسم لها ابتسامة حب ثم دار بوجهه نحو الجماعة وتبوأ

مقعداً بجانب الرئيس وقال

— حسناً يا سادتي . سأخبركم بما فعلت خلال هذه المدة الطويلة . . . أظن ان آخر اجتماعي بكم كان ليلة السطو على صاحب مصرف باسكال وشركاه . اليس كذلك. نعم . فبعد ان اقتسمنا الغنيمة وقد نالت منها نحو الالف فرنك اجتمعت ببرنار وجوتيه وبيساك واقترحنا تمضية الوقت في نزهة تسرنا فكانت نتيجة اقتراحنا سفرنا الى ليون لنتمتع الطرف بمرأى هذه المدينة . فلما ان وصلناها وقد انتصف الليل آوينا الى حانة واسرفنا في الشراب والحق يقال . فبينا نحن سائرون في احد الشوارع المظلمة بعد ان غادرنا تلك الحانة تتجاذب أطراف الحديث والحديث ذو شجون غلبني الخمول وكاد يتسلط عليّ الكرى وانا ماش فلم ينتبه اليّ رفاقي وظلوا سائرين كما أظن وقد ألهاهم عني شدة الحلك وفعل الخمر وظللت أسير متراوحاً ذات اليمين وذات الشمال حتى شعرت بأقدام تقترب من ورائي فلم أكد أرى القادم حتى غاب نصله في عنقي فهويت الى الارض مغمياً عليّ . .

انظروا فعل اللئيم ولولا رأفة الله بي لكنت الآن هباء منثورا

ثم كشف عن عنقه وأظهر لهم الجرح الذي به فصاحت النساء

— مسكين . لقد كان ألمك شديداً يالوسيان . ومن فعل بك ذلك

— ومن غير لصوص هذه المدينة الملعونة . رأوني غريباً وشهدوا ما كان من أسراي في الخانة فرأوا الفرصة سانحة . . الا لعنة الله عليهم

فتنهد كل من برنار وجوتيه وبيساك تنهد الفرج وأشرقت وجوههم واقتربوا منه بعد أن كانوا وراء الجماعة لاهين بما هم فيه عما يقول لوسيان

ثم قال الرئيس

— وبعد

وصاح الجمع

— نعم . نعم . وبعد يالوسيان . أتمم بالله

فتابع لوسيان كلامه قائلاً

— ولم أكد أفيق من أغمائي حتى رأيت نفسي مطروحاً في سجن مظلم قبيح . . فصحت بالسجان ماذا كان مني حتى أدخلتموني هذا المكان . واذا به يخبرني وأنا مملوء دهشة انه قد مضى علي في مستشفى السجن نحو الثلاثة الأسابيع تراوحت فيها بين الموت والحياة . ثم تذكرت بعد ذلك الحادثة المشئومة وقلت له وكم مر عليّ بعد خروجي من المستشفى فأجابني نحو العشرة ساعات ففهمت اني صحوت من نومي اذ ذاك لا من أغمائي

فضحك الرجال وتأوهت النساء وأرهفوا آذانهم للسمع فقال لوسيان

— وبعد ذلك عمدت الى الحيلة حتى أخرج من هذا المكان الكريه . حتى كان يوم صحو أذنوا فيه للمسجونين بالنزهة قليلاً في فناء السجن وكان هذا محاطاً بسور شائك فظيع ولكن حب الحرية سهل لي كل صعب . فاغتنمت غفلة من الحراس وهربت

فقيل له

— وقيدك

— كلا . لم أكن مقيداً . فقد سجنوني من غير تهمة . رأوا من هيئتي ما يريب فألقوا بي في السجن ولم يكبلوني وبعد ذلك خدمت عند طبيب هناك وكان بسيطاً ساذجاً فسرقت من ماله ما ضمن لي السفر بالسكة الحديدية الى باريس

فقال له الرئيس وقد ظهرت في صوته نبرة الاحتقار

— أو هذا كل ما فعلت . حقاً أنك لجرىء

— كلا . ومن انبأك بذلك . او مثلي يرضى بمثل هذا العمل التافه . لقد أقمت في باريس مدة طويلة وأنا لي كل يوم عمل حتى ضمنت قوتي و . . .

— ولماذا لم تحضر الى هنا توا

— وكيف أحضر وقد علمت أنك مقبوض عليك

فقلت اذا كان الرئيس قد قبض عليه فلا بد من اكتشاف مأواه . فخفت والحق يقال الوقوع ثانية في أيدي هؤلاء القوم وقد ذقت مر العذاب في المدة التي أقمتها بينهم

— أكمل . قلت انك قمت بأعمال عظيمة . أليس كذلك

— كيف لا . سأذكر لكم حادثة لطيفة حدثت لي فزت منها بحلية لا تطيب الا لجيد برتا ... عليّ يا برتا بكأس آخر فقد جف حلقي

فأتته هذه بكأس وقالت له بدلال

— وما هذه الحلية يا لوسيان . . . . دعني أراها قليلاً

— سترينها يا حبيبتي بعد ان أروي حكايتها . . . . كنت أول البارحة سائراً في طريق مونمارتر حوالي منتصف الليل واذا برجل يرطن رطنة أظنها أسبانية وأنا أعلم ما هي حالة هؤلاء القوم من السذاجة والبساطة وان كانت اعمالهم لا تخلو من وحشية . فرأيت ان أتحكك به عليّ أفوز منه بشيء أفك به هذا النحس الذي لازمني مدة . فاقتربت منه فرأيته واقفاً أمام حانوت لبيع الجواهر يصرخ ويقول ويل للصوص . ويل للاشقياء . سرقوني اليّ ايها الشرطي اليّ . على اللص على اللص فخفت مغبة الامر وتواريت حتى جاءه الشرطي وحقق معه وقال له اتبعني وابث شكواك الى القسم فأغلق

الرجل حانوته ومضى يتبع الشرطي فانسللت وأخرجت حلقة المفاتيح من جيبي وأعملتها في القفل حتى فتحته وظللت مدة طويلة أبحث في الظلام عن شيء أجده فلم أعثر على شيء مطلقاً فجعلت أمر بيدي على الحائط عليّ أعثر بزر النور حتى اذا ما أصاب هو يدي أدرته فأنار المكان مصباح كهربائي كبير سطعت نحت ضوئه حلية على المنضدة فوق الخزانة فأسرعت الى التقاطها وأسقاطها في جيبي ثم تغلب عليّ الطمع فجعلت أدور حول المناضد المرصوفة فيها الجواهر والحلى ووقفت أمامها حائراً ولم أدر الا وصوت صارخ من جهة الباب وبقادم يسرع نحوي وهو يقول لن تفلت هذه المرة من يدي ايها الشقي. فأهويت بحلقة المفاتيح على مصباح الكهرباء فتحطم وعم المكان ظلام شديد فحار الرجل في أمره فاغتنمت الفرصة وضربته بيدي على بطنه أوقعته الارض مجندلاً . ها . ها . يا له من منظر يضحك الثكلى . سقط الرجل يتألم من الضربة وطرت . .

ثم أكمل تعبيره بصفير قصير من فمه

ثم سكت هنيهة وقال

ثم رأيت استحالة البيع في مثل هذا الوقت ورأيت ان التاجر سيعرض شكواه ثانية على الشرطة وسيراقب هؤلاء بائعي الجواهر ويوصونهم اذا ما عرض عليهم أحد تلك الحلية التي أخذتها قبضوا عليه . ففكرت في الأمر ثم لاح لي بارقة أمل فأسرعت نحو حانة العم جاك أسأله عن الرئيس والعصابة فقال ان الرئيس هرب وان المأوى لن يقدر أحد على اكتشافه فسررت جداً من هذا الخبر وطرقت مخيلتي صورة برتا الجميلة فقلت والله لأقدمن لها هذه الحلية تذكاراً لعودتي اليها ومحبتي لها .

ثم أخرج من جيبه حلية خطف سناها الابصار واندلعت لها ألسن النساء واشرأبت نحوها أعناق الرجال فقدمها لها بهيئة الظافر الغانم وعلقها على صدرها جهة القلب وقال

— لعل هذه الحلية تنقل ما بقلبي الى قلبك اذ قد جعلتها رسولاً بين قلبينا يا برتا

ثم قبلها في خدها فابتسمت له بدلال وقالت

ـ اما هذه المرة فلست بخبيث

صمت الجمع برهة من تأثير حكاية لوسيان لهم وقد سردها عليهم بسذاجة تامة أزالت كل شك في نفوسهم

وبعد برهة قال الرئيس

ـ أو كل عملك كان هذا

ـ ماذا . ألست ترى في ذلك الكفاية

ـ يا لك من ساذج غر . أتظن الحصول على حلية تافهة وبالقوة نصراً مبيناً . هاها ما أضيق عقلك

ـ كيف . ماذا تقصد . أتريد أن أسلب لك حانوتاً برمته أو أسرق امرأة باولادها حتى يكون عملي عظيماً

ـ لا هذا ولا ذاك .... اسمع . انك قصصت علينا حكايتك وانت ترى فيها كل الفخر . أليس كذلك . حسناً اما انا فسأروى لك ما فعلت وبعد ذلك تعلم انى ما صرت عليك رئيساً عبثاً

ـ تفضل

ـ ما قولك فيمن يقتل رجلاً بيد القضاء بجريمة هو

بريء منها . ثم ما قولك في رجل يستأثر بامرأة من اغنى النساء في باريس . وما قولك في رجل عمل ساعة فكان ربحه مالاً طائلاً وقصراً هائلاً وجمالاً لم تقع العين على نظيره

— لست أفهم الاحاجي فاسرد علينا قصتك بوضوح حتى نفهم

— حسناً فاسمع . عدت من السجن فسمعت ان خليلتي سبت عقل رجل من اغنى اغنياء باريس .

— ألعله صاحب مصرف روتشلد

ـ لا تقاطعني ... قلت رجلاً غنياً جداً تبلغ ثروته العقارية نحو السبعة الملايين من الفرنكات بخلاف ما يقصره من مال وجواهر غوال واشياء ثمينة لا تحصى ولا تعدّ . هذا الرجل اخذ منه عشق خليلتي كل مأخذ فتزوجها . ثم اقامت معه مدة وسئمت قربه فركنت اليّ طالبة مساعدتي لها في خلاصها من هذا الشيخ

فسأله لوسيان

ـ أوهو شيخ

ـ قلت لك لا تقاطعني . نعم شيخ يبلغ الخمسين . أليس ذلك شيخاً امام غادة لا تبلغ العشرين

فقاطعته برتا هذه المرة قائلة

ـ اجيلة تلك الغادة

ـ ليست بأقل منك جمالاً . عجباً لو داوم على مقاطعتي لما انتهيت من حديثي الليلة

فقال لوسيان وقد زاد شوقاً لاتمام الحديث

— قل . قل . سمعا ياقوم لما يقول رئيسكم

ثم استطرد ماريوس فقال

ـ قلت انها ركنت اليّ طالبة الخلاص من هـذا العجوز فقمت بعمل يدهشكم جميعاً ولا ريب. أرسلت رسالة برقية عن لسان زوج المرأة الى اخيه بليون يخبره فيها بأنه مريض مشرف على التلف وأخذت من زوجة الرجل معطفه وقفازيه ورحلت الى ليون وقد لبستهما وانتظرت سفر الاخ الى باريس حتى اذا ما سار بنا القطار ليلاً . قتلته . . وأي قتلة . بطعنة خنجر أصابت قلبه لاول وهلة وتركت بجانبه

قفازاً واحداً حتى اذا ما وصل القطار الى باريس هرعت الى منزله وأعطيت المرأة المعطف والقفاز الآخر وقلت لها ضعي هذا مع رسالة أرسلها القتيل الى أخيه يسأله فيها سداد دين عليه يبلغ المائة ألف فرنك في جيب المعطف اذا ما طلب أحد منك أحضاره . ثم ذهبت الشرطة اليه لينبئوه بالخبر فوجدوه بعافية فشكوا في أمره وسألوه اين قضى ليلته فأجاب بقول مبهم ففحصوا معطفه فوجدوا على ما قالوا محرك الجريمة والباعث عليها فقبضوا عليه وأودعوه السجن وسيحاكم غدا . وهكذا صفا لي الجو وتمتعت بقصره وامرأته الحسناء وماله الجزيل . فما قولكم

فصاح القوم بهتاف شديد

— مرحى . مرحى . يالك من بطل مغوار

فعاد ماريوس الى الحديث وقال

— وأظنكم على شوق كبير الى معرفة اسم هذا المنكود . أليس كذلك . . اذن فاسمعوا . ان هذا الرجل الذي ذهب ضحية ما فعلته أنا هـ . . . .

واذا بلوسيان قد هب من مكانه وصاح به بصوت يلعب به الغضب وقد رفع مقعداً يريد سحقه به

— كلود لورانس ياشقي . . أليس كذلك . . . تبا لك وتعسا

فتقطب جبين الرجل ونظر اليه نظرة حقد هائل وهم بمجاوبته على فعله فحال بينهما رجال العصابة . . . وبينما كان الجمع يلطفون من حدة لوسيان ويتساءلون عما أدى به الى معاندة الرئيس ومخاصمته انتبذ ماريوس بيرنار وجوتيه وبيساك ناحية وقال لهم بصوت يقصف كالرعد

— عليكم به . ووالله لئن فشلتم في قتله لاوردنكم موارد الهلكة

ونظر الى لوسيان وقد ولاّه قفاه بحادث القوم نظرة أودع فيها كل ما يخامر نفسه الشريرة من حب الانتقام وسفك الدماء

فانحنى له الاشقياء طاعة وانصرفوا في تدبير أمر مولاهم

الفصل السادس

(المطاردة)

انفرط عقد العصابة وسار افرادها يتسللون من مأواهم قاصدين دورهم في تلك الساعة المتأخرة من الليل ولم يبق في ذلك المأوى أحد اللهم الا العم جاك يقفل حانته ويهيء فراشه

خرج لوسيان دوبال وهو مملوء حقدا على ماريوس وحمد الله في سره على هدايته سبيل اكتشاف الجريمة ومعرفة الجاني الحقيقي . خرج من المأوى الى الحانة ومن هذه الى باب خلفي لها يؤدي الى سلم قديم يوصل الى شارع ضيق لم يضئه الا قنديل ضئيل النور أقيم في منتصف السلم

وعلى بعد نحو الخمسة الامتار من هذا السلم تقاطع الشارع بشارع آخر يؤدي الى جهة نهر السين

كان هذا الدرج بغير سور قد تفتت صخره من كثرة الرطوبة والقدم فلما ان توسطه لوسيان بعد خروجه من تلك الحانة اذا به يسمع طلقا ناريا ومرت امام وجهه رصاصة يصحبها أزيز كأزيز النحل فهوى بظهره جهة الشارع

فرأى رجلا تمدد جهة حائط السلم وأطلق عليه مسدسه وهو يقول

— ليست كل مرة تسلم الجرة يامسيو برنار . فخذ هذه اراح الله الناس من شرورك بعدها

ولم تكد رصاصته تصيب قلب برنار وتميته حتى دوى بجانبه صوت طلقين ومرت احدى الرصاصتين بقبعته فثقبتها ولم توقعها لشدة تمسكها برأسه ومرت الاخرى على قيد ذراع منه

فأجفل لوسيان وقال في نفسه :

— ارى مؤامرة علي في جوف هذا الليل

ثم صاح بالرجلين الهاجمين وأطلق عليهما الرصاص فأخطأهما وفر هاربا ودار في ذلك الشارع المؤدي الى نهر السين واطلق لساقيه العنان حتى اذا ما اقترب من النهر وجد قاربا مشدودا بحبل فهبطه وبينما هو يحاول فك هذا الحبل وقد استعصى عليه هجم الشقيان يريدان القبض عليه فتناول مجذافا وضرب به واحدا منهما فتقهقر وهجم الآخر

عليه فشدد حب الحياة من قوى لوسيان وضم الرجل بقوة بين يديه والقاه في النهر

ثم حاول متابعة فك الحبل غير ان الشقي المتقهقر لم يمهله بل هجم عليه يريد قلب القارب به في الماء فرأى لوسيان استحالة البقاء في القارب فخرج منه بعد ان لكم الرجل لكمة أفقدته الرشد بضع ثوان وفر منهما جاريا واستمر كذلك مدة طويلة حتى رأى جسرا كبيرا اقيم فوق مصرف جديد من المصارف العمومية التي امتلأت بها أرض باريس السفلى فليس يخلو من أحدها شارع من شوارعها

تلك المصارف عبارة عن غرف واسعة جدا او مماش طويلة عريضة كالشوارع يتسرب اليها ماء المطر من خلال نوافذ في أرض الشارع مشبكة بالحديد

سار لوسيان مسرعا ويمم جهة هذا الجسر حتى اذا ما توسطه رأى بجنبه صقالة معدة للبناء خالية من العمال ذلك الوقت فنظر تحته فلم ير ماء بل رأى مواد للبناء قد تراكمت

من حولها فرأى الفرصة سانحة للخلاص من أيدي الاشقياء وقد تأكد له انهم ماتبعوه الا بناء على أمر رئيسهم الذي أغلظ له القول وفضح نفسه أمامه بفلتة لسانه

تعلق بتلك الصقالة حتى اذا ماهبط الى الارض قال في نفسه

— لاختبىء هنا . فاذا ما رأيتهما مقبلين أطلقت عليهما المسدس فأرحت نفسي والعالم أجمع من شرورهما

ثم فحص مسدسه فوجده خالياً وليس من قذيفة معه فاضطرب وألقاه من يده وهو يقول

— اف من معاندة الاقدار . سأهد الصقالة بيدي وأفر تحت الجسر وبذلك أغنم فرصة الوصول الى الاحياء المطروقة فآمن على نفسي منهما

وكانت الارض رخوة لقربها من النهر ولتخلل المياه فيها فشد بقبضتيه على عرق منها وجعل يهزه هزاً متوالياً فتخلخلت الصقالة وما هي الا برهة حتى سقطت برمتها نحو فتحة الجسر السفلى ولم يبق منها الا لوح أفقي معلق

بالجسر وقد التفّ عليه شيء من الحبل

وفي نفس اللحظة التي هوت فيها الصقالة بدويها القاصف ظهر الشقيان على الجسر ولما سمعا الدوي علما بكل ما كان ففك أحدهما الحبل الملفوف على اللوح المعلق بحافة الجسر وتدلى عليه بينما ذهب الآخر الى الجهة المقابلة منه وسار يريد قطع خط الرجعة على لوسيان

هبط بيساك من الحبل ثم جرى نحو فتحة الجسر وكان الظلام دامسا الا انه كان يسمع بين آونة وأخرى قرقعة الخشب بالقرب منه تحت اقدام لوسيان وهو يتعداها يريد الخروج من هذا المأزق

ثم مضت برهة لا يسمع في خلالها الا قرقعة الخشب والشتائم المتبادلة بين الرجلين الى ان سمع بيساك صيحة جوتيه من الطرف الآخر يقول

— هلمّ . هلمّ يا بيساك فقد وجدته

فعدا الرجل جهة الصوت واذا به يرى ارضاً مكشوفة تخللها ضوء القمر وبها بئر عميقة تراكمت حولها الحجارة

ومواد البناء المهجورة فأطبق الرجلان على لوسيان وكان قد عثرت قدماه فوقع وهو يلهث تعباً ويتصبب عرقاً

ولم يلبث ان عادت اليه قواه عند ما رأى الشقيان يجرانه جراً نحو البئر يريدان القاءه فيها فقاومهما مقاومة المستميت ولكن بعد ما اقتربا به من البئر ولم يكن بينه وبين فوهتها قيد شبر فتغلبا عليه بعد مقاومة عنيفة ورمياه فيها ولم يسمعا له صوتاً بعد ذلك ولا حساً

فقال بيساك لجوتيه

— ألعله مات

فأجابه هذا

— لست أدري تماماً . ولكن من باب الاطمئنان على مافعلنا يجب سد تلك الفوهة وبنائها حتى لا يعود يستطيع النجاة بالمرة . . . . هيا

ثم بسطا لوحين عريضين على فوهة البئر وحملاهما بالحجارة الضخمة وردماهذه بالاتربة والاوحال حتى بات من المستحيل على المدفون فيها القدرة على أزالة هذا السد المنيع

ثم نظر الرجلان الى بعضهما نظرة الارتياح وقال بيساك وهو يلهث

ـ أعوذ بالله من هذا الشيطان . آه . لقد كاد يوردنا موارد الهلاك . . . . هيا هيا يا جوتيه حتى نخبر الرئيس بما فعلنا فيجزل لنا العطاء

فنظر جوتيه الى هذا السد المنيع وانحنى صارخاً

ـ نم هنيئاً يا مسيو لوسيان . فما كل مرة تسلم الجرة على قولك . . رحمك الله يا برنار . . . . هيا يا بيساك فالليل كاد يؤذن بالزوال وأخاف الشمس وأنا في مثل هذا المكان

وسار الشقيان وأيديهما في جيوبهما يصفران أنشودة الانتصار .

. . . . . .

كانت البئر خالية لاماء فيها ولم تكن بئراً في الحقيقة بل منفذاً يتسرب منه الماء الى المجاري العمومية ومنها الى نهر السين

فلما سقط لوسيان سقط على أرض رخوة تراكمت

عليها الاوحال والاقذار فلم يصب جسمه بسوء ما الا انه أغمى عليه لفرط ما اصابه من ضعف وأجهاد

ظل مغشياً عليه مدة طويلة ثم أفاق من أغمائه وقد أحس بألم في ساقه فمر بيده عليها ثم أرجعها بغتة وقد انتفض جسمه رعباً وقال

- ويلي . . أين أنا . . وما هذه الحيوانات التي تحوم حولي . . . . جرذان . يالله

ثم صرخ بكل قواه حتى يأتي أحد فينجده من تلك الشدة وما من مجيب . وانهالت عليه الجرذان فسار يسحقها بقدميه ويجرى في تلك المجاري ويقف ثم يرهف آذانه فلا يسمع الا صوت دبيب تلك الحيوانات على ارض المجرى وقد عم الظلام فلا يرى شيئاً

فانكب راكعا وقد يئس من نجاته ودعا الله في شدته والجرذان تعمل فيه انيابها ومخالبها وهو يضرع الى الله ان ينشله من هذه الآلام . وبينما هو كذلك اذا به يرى نقطتين تلمعان في الظلام وتتحركان يمينا وشمالا

وشعر بالجرذان وقد هرعت الى الهرب والاختباء وهي تصرخ صراخ الخائف ولم تمر برهة حتى كان المكان خلوا منها فعلم ان هاتين النقطتين كانتا عيني هرة ارسلها الله اليه في شدته لتخفف عنه احد ويليه

ثم سار وهو يسند نفسه على حائط المجرى ويتلمس في الظلام بيده علّه يجد مخرجا من ذلك القبر المظلم فلم يهتد الى شيء . فصرخ بصوته طالبا الغوث والمنجدة فرن صوته في جدران المكان ولم يسمعه أحد

فركع ثانية وقال بصوت البائس

— يارب . اما من خلاص من هذا الضيق . اكتب علي ان اقبر حياً بعد ما اهتديت الى الحقيقة واردت لسيدي الوفاء . أيرضي الله ان يظل القاتل المجرم منعماً ويروح البريء ضحية الافك والبهتان . آه من لي بالنجاة فأفوز على القوم الظالمين

واستمر على هذه الحال مدة طويلة يناجي ربه وقد برح به الاعياء اي تبريح فغلبه النوم . ولم يطل نومه حتى

شعر بانه يسمع دبيبا قويا فوق رأسه وحركات مختلفة تروح وتجيء بصوت شديد فأدار نحو الحائط رأسه واذا به يرى منفذا تسرب منه ضوء النهار وكان الدبيب صوت مرور العربات والسيارات . ففرح بالنجاة واسرع ميمما نحو ذلك المنفذ واذا به صرخ صرخة قوية دوى لها المكان وقال

— مشبك بالحديد . يالنكد الطالع وسوء الحظ

ثم صرخ بأعلى صوته وقد اصفر وجهه يأسا

— الي . الي

وخفت صوته . وخر مغشيا عليه ويده ممسكة بقضبان المنفذ

الفصل السابع

(النجاة)

في تلك اللحظة التي صرخ فيها لوسيان يطلب النجدة ساقت العناية شرطيين كانا مارين بالقرب منه فقال أحدهما للآخر

— يهيأ لي يا سيمون أني أسمع صوتاً . أليس كذلك

— نعم . لقد طرقت أذني صرخة استغاثة ولست أدري من أين أتت

فانحنى رفيقه نحو مصرف المياه الذي كانا بجواره وسكت هنيهة ثم قال

— اني أرى انساناً معلقاً بحديد نافذة المجرى . . أظنها جريمة ارتكبت هنا . اسرع . اسرع بالله وانزل حتى ننقذه اذا كان به رمق من الحياة

فتح سيمون غطاء المنفذ ونزل برفق ميمما نحو منفذ المجرى الذي به لوسيان وجذبه اليه بقوة فانخلع الاطار وتدلى منه المنكود ولم يبد حراكاً

فصرخ رفيق سيمون وهو واقف على باب المنفذ جهة الشارع وقال

— ماذا ترى . أميت هو أم لا يزال حياً

— لست أدري تماما. انزل وعاوني في اخراجه

فتعاون الشرطيان حتى أخرجاه من مكانه وهو بين

ايديهما لايحرك ساكناً فوضع سيمون يده على قلبه ثم صاح بشراً

— أرى قلبه ينبض فهو لم يمت. هيا بنا الى القسم وهناك يدلنا على من فعل به تلك الفعلة الشنعاء

ثم التفت حوله فرأى مركبة تسير في عرض الشارع فناداها وحملا لوسيان اليها وجرت العربة مسرعة بهم الى القسم

. . . . . .

أفاق لوسيان بعد ساعة من أغمائه فوجد نفسه مطروحاً على مقعد طويل في غرفة أشبه بغرف السجون التي في الاقسام ثم شعر بجوع شديد وعطش أشد فصرخ بصوت خافت

— اين أنا يا ترى . وما هذا المكان الذي أجهله . وما هذا الجوع الذي يفتك بي . بل وما هذا العطش الشديد. . . . ألا من مجيب هنا

فدخل اليه شرطيّ وقال له برفق

— أراك أفقت بعد طول أغمائك فماذا تريد

— أريد شيئاً أسكن ما بي من جوع وظمأ

فأتاه الشرطي بشيء منهما فالتهمه التهاماً ولم يلبث ان عاوده النشاط والقوة فسأل الشرطي

—ولكن أين انا ولماذا أرى نفسى بينكم

—قد وجدناك مطروحاً فى مجرى من المجارى ولم يكن بهاشيء من الماء لحسن حظك ولو لاصوت استغاثتك لذهبت ضحية جهالتك . هأنا ذاهب الى نائب الرئيس فأخبره بقدرتك على أجابته على مايسألك

ـ حسنا فاذهب فانا في حاجة قصوى اليه . . . . لقد نجوت والحمد لله . وستدور الدائرة على الاشقياء . . . . ماريوس . ألا ويل لك ساعة تنال على يدي جزاء ما اكتسبت يداك . وويل لتلك الحية الرقطاء مني ساعة أكشف عن عملها الستار . . . . . آه اقتربت الساعة وخذل الذي بغي وفجر

ثم عاد اليه الشرطي وقال له

ـ اتبعني الى حيث يقيم حضرة النائب

ولم تمر برهة من الزمن حتى كان لوسيان واقفا أمام

موريس لوستان مساعد الشرطي جول ميشيل والذي اقام البرهان على أجرام كلود لورانس من قبل

نظر موريس الى لوسيان نظرة تحقيق وتدقيق ثم قال له بعد برهة

— ماذا بك

— كنت في سبيل قضاء واجب من أشرف الواجبات فداهموني وأوقعوا بي كما أخبرك الشرطي

— من هم

— جماعة من الاشقياء

— وما هذا هو الواجب المقدس . ومن هم هؤلاء الاشقياء . أفصح الكلام واسرد الحقيقة علنا نهتدي اليوم فينا لهم منا الجزاء

— سأسرد لك كل شيء ياسيدي ولكن ليس الآن. جئت في خدمة سيدي لا كشف له الستار عن عمل وحشي عمت عنه عيون القضاء فوفقني الله الى سواء السبيل . وان افوه بحرف حتى يحضر ويسمع حديثي أمامكم جميعاً

— ومن هو سيدك حتى نرسل في طلبه كما تقول

— اسمح لي ياسيدي بورقة ارسلها مع احد رجال الشرطة الى مكتب التلغراف فيحضر بعد اربع ساعات أكون فيها أرحت جسمي بالنوم لفرط ماأصابني ليلة البارحة من الاعياء

فمد له موريس يده بورقة وقلم وقال له بتهكم

— اكتب ماتشاء وسنرى مدى وقدرتك على تخطئة القضاء

فكتب لوسيان على الورقة مايأتي

« الدكتور مارسيل لورانس ليون

«أبوك بريء . والجاني بين يدي احضر حالا

لوسيان »

ولم يكد موريس يقرأها حتى هب من مقعده وقد امتلأ غيظاً وصاح به

— ماذا تعني . ومن هو مارسيل . ومن هو ابوه البريء

— قلت لك ياسيدي هذا ليس بسري فابوح لك به انما هو سر مولاي وواجب الشرف يقضي علي بالكتمان حتى يحضر

— وكيف اطيق الصبر ساعات وانا عالم انك تحوي في صدرك سرا هائلا ان صح لم يعد لي رجاء بعد في القيام بأعمالي... كيف ؟ اتقدر على تخطئة أمر يعلم الله ماعانيت في سبيل تحقيقه واثبات صحته

— انت ! أأنت الذي أقام الدليل على اجرام المسيو كلود لورانس

— نعم أنا . وسترى من منا الظافر في هذا المضمار

— اكتمْ خبري عنك واكتمْ خبرك عني . وما هي الا برهة اقضيها في النوم حتى تنقشع عنك حجب الظلام أمام نور الحقيقة

— سأنتظر

ثم قال لوسيان بعد برهة

— اتسمح لي ياسيدي بعقعد انام عليه تلك المدة الباقية

حتى حضور سيدي . اني في حاجة قصوى اليه بعد ما تم لي البارحة على ايدي الاشقياء . . . . . صبراً ايتها العصابة الدموية فستحبط اعمالك وتذهب ريحك اي مذهب

ثم تمدد على مضجع ولم تمر برهة حتى علا غطيطه

. . . . . .

قرأ مارسيل رسالة خادمه البرقية وقد انحدرت دموع الفرح من عينيه وصاح بصوت يتهدج بشراً

— الجاني في قبضة يديه . وابي برىء . ماهذه السعادة المفاجئة وما هذا الخبر السار . لوسيان توفق الى الدليل . الا اكرم بك من صادق العزيمة وانعم بك من وفيّ . . . الحمد لله . . . الحمد لله

وهرع الى غرفته وارتدى ثيابه على عجل وقام بالقطار قاصداً باريس

. . . . . .

لم يكد يقف القطار بمحطة باريس حتى هجم رجل على عربات الدرجة الاولى يتصفح وجوه ركابها فلم يلبث

ان سمع رجلاً يناديه بصوت الفرح

— لوسيان

— سيدي

— شكراً لك يالوسيان واي شكر . كيف حال ابي أأخبرته بالامر . . . . . واين هذا السفاك المجرم اوقع في ايدي الشرطة وهل هو في السجن . . آه من لي برؤيته حتى يهدأ بالي

— صبرا ياسيدي وسترى عجباً

— يالك من اسد في صورة انسان

وطفح وجه لوسيان بشراً برؤية سيده ومشي وراءه مشية الثمل يرمقه بعين الولاء والاحترام . وركبا عربة سارت بهما الى القسم وهناك قابلهما المسيو جول ميشيل ومساعده موريس لوستان والكل في شوق لما سيسرده عليهم لوسيان

فتبوأ كل مقعده ووقف لوسيان موقف الخطيب وبدأ

حديثه يخاطب مولاه فقال

— انك ياسيدي برهنت على ما في نفسك من همة وما في دمك من نخوة . فلم تأنف من انقاذ حياة شقي صرفها في ما يغضب الله وتنفر منه الانسانية . . . . . اسمعوا ايها السادة . . . كنت لصاً شريداً لامأوى ولا عمل. كنت في عصابة غاية رجائي من الله الآن أن أرى أفرادها تعمل فيهم بلطة الجلاد . . . آنسوا مني ضعفاً فغووني . . ووجدوا مني سلامة فخدعوني . . . . لست أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء . . ولكنهم لايخلون من مسئوليه ولا اخليهم من تبعة . . . لطخوا حياتي بالشرور وحببوا لي ارتكاب المعاصي والفجور . . . حتى أراد الله لي أخيرا السعادة بعد هذا الشقاء فأغوى الشيطان نفوس بعض أفرادهم وحاولوا قتلي بعد ان قادوني الى ليون وطعنوني بخنجر كاد يزهق روحي فتذهب الى سقر . . فوجدني هذا السيد وهو طبيب فأخذته الشفقه وحب الخير فأحياني من عدم وهذب من نفسي وقد طال على فسادها الزمن

فخجل مارسيل من سماع إطراء الرجل له في وجهه وقال

— يعلم الله اني ما فعلت شيئاً يوجب كل هـذا . . .

وليس من رجل امتهن مهنتي الا ويفعل معك فعلي

— كلا ياسيدي . بل ان من كان في نزاهتك واستقامتك يرى الناس جميعاً مثله . وقـد كنت أنا ارى الناس كلهم لصوصاً اشقياء يوم كنت لصاً . . . لست أطيل الحديث فلعلّ منكم من مل . . . رأيت من الواجب عليّ ايها السادة أن أقوم بحق الوفاء لسيدي حتى أفيـه حقه عندي من الشكر والاعتراف بالجميل . . وظللت كذلك مدة حتى أتاح لي القدر تلك الفرصة فاغتنمتها . . . بلغ سيدي ان أباه اتهم بقتل أخيه وانه قد ألقى القبض عليه وألقى في غيابة السجن فشككت والله في صدق الرواية وقلت في نفسي يستحيل ان يكون أبو سيدى مجرماً وابنه على مارأيت من كرم الطبع وكريم السجايا . . . ثم رأيت من سيدي ما آلمني من شدة كربه وبالغ ألمـه فأقسمت له على كشف الستار عن فاعل هذه الجريمة فاما ان يكون أبوه — لاسمح الله —

قاتلا ويكون القضاء قد صدق في رأيه فيه وانما أراه بريئاً ذهب ضحية الخطأ والابهام . . . سرت نحو باريس وأنا أقول « لا تخلو قضية قط الا وللمرأة فيها يد فلأبحثنّ عن المرأة وبها اهتدى الى سواء السبيل »

فسأله موريس وقد بدأ يسأم

— ومن هي هذه المرأة التي صح عزمك على البحث عنها

ـ اراك سئمت حتى صرت تود سماع مالم يؤن وقت سرده ياسيدي . . . . حسناً فسأختصر . . . ذهبت الى منزل ذلك البرىء كلود لورانس وتسلقت سوره ليلاً وسرت أتلمس طريقي في الحديقة وقد عم الظلام حتى اهتديت الى مكان سهل لي فيه البحث والتجسس سمعاً ونظراً . فرأيت . . . او تدرون ماذا رأيت . رأيت تلك الزوجة الزائغة قد آوت الى منزلها خليلاً جعلت تخاطبه بلفظ الحب وتبثه لوعة الهوى وهو مطوق خصرها بيده ملق برأسه الى صدرها . . . . اتعلمون من هذا الرجل . هو

ماريوس رب تلك العصابة الدموية التي قذفني سوء الحظ بين مخالبها ردحاً من الزمن . . . ظهرت لي الحقيقة بأجلى بيان . ولكن لم ارد غير البرهان . . ذهبت الى وكر اللصوص ومأوى الاشقياء فحسبوني عدت من السجن فلفقت لهم الحكايات الطوال زعمت اني قمت بها مدة غيابي عنهم وجعلت احرك الرئيس الى الكلام بان افخر عليه باعمالي التي اسردها تباعاً ولم يشك احد في صدقها . . . واذا به قد خاطبني خطاب المتعاظم وسرد عليّ ما فعل حرفياً. قال لي انك تفخر بأعمالك الصبيانية التي قمت بها . . . . اما انا فعملت ساعة كسبت بها جمالاً رائعاً وقصراً هائلاً ومالاً طائلاً

ثم سرد عليهم لوسيان ما قاله ماريوس حرفياً حتى اذا ما انتهى منه قال موريس وقد انتفض حنقاً

- تبا لها من شقية . نعم نعم . اني اتذكرانها قامت مسرعة عندما طلبنا رؤية المعطف . . . . آه منها ما أكبر خداعها . . . جلست بجانبي كي تسمعني جملتها « لعله فعلها

آه من الشقي » . . . كي تزيدني ريبة . . . . ذهب املي في تلك المهنة فقد غلبتني امرأة . . . . تبا لها ولي

فقال لوسيان

ـ ليست هي بامرأة عادية ياسيدي بل هي نفس شيطان لُبِسَتْ صورة ملاك . . . يالها من عاهرة فاجرة لقد كدت أنسى اكمال الحديث فاسمعوا . . . سرد علّ الشقي مافعل ثم اراد التبجح والمفاخرة فقال « أو تدرون من هـذا الشيخ الذي اوقعته بين براثن القضاء على غير ذنب . ولم يُكمل اذ سبق لساني ارادتي فصحت به « هو كلود لورانس ياشقي » وهممت بضربه بمقعد فحالت يدي وبينه افراد العصابة فانتهزها الشقي فرصة وأرسل ورائي بعض اعوانه لاغتيالي فجرى لي معهم ما يطول شرحه وانتهى الامر بان اغمى علىّ وانا في هذا القبر المظلم . . . . اني لاحمد الله يامولاي على قدرتي بالقيام بالوفاء بشيء من جميلك نحوي

فهجم عليه ماريسيل وعانقه وقال

ـ ان ما فعلته معي هو عين الوفاء والاعتراف بالجميل . .

لئن كان ما فعلته انا معك جميلا فان عملك معي اكبر واعظم.. فهات يدك اصافحها

— عفواً يامولاي . ما انا الا خادم وان كبر في عينك ما فعلته . . كلا لم انته بعد من عملي . . ان اباك سجين ولن يطول سجنه . . . فاذهب اليه ياسيدي وبثه حبك له وأمله بالفرج العاجل . . اما انا فاريد الخلوة بالمسيو جول والمسيو موريس لتدبير ما يجب علينا عمله

— اولا ارى الجاني بعيني حتى يهدأ بالي

— ستراه كما تشاء وعند المساء اخبرك ما تفعل . .

فاذهب ياسيدي الى ابيك فهو في حاجة فصوى اليك

وذهب مارسيل في ذلك السبيل واختلى لوسيان بالشرطيين واتفقا على ما يفعلانه في سبيل القاء القبض على العصابة . حتى اذا ما انتهوا من المذاكرة قال لوسيان

— لي رجاء واحد لا اظنكما تضنان عليّ باجابته . . . ان لي بين افراد هذه العصابة امرأة لا تزال نفسها قابلة للاصلاح وقد احببتها فاريدها لنفسي زوجة . . . . . .

فاقسما لي علىّ اجابة طلبي اسلمكم العصابة فرداً فرداً

— أو أنت واثق من خلو نفسها من حب السوء

— كما انا واثق من نفسي الآن . وسأراقبها وأهذبها وأملي بصلاحها كبير

— لك وعدنا بذلك . فاذهب وفقك الله

وخرج لوسيان يدبر امر القبض على تلك العصابة

الفصل الثامن

(المحاكمة)

كان ذلك اليوم موعد محاكمة كلود لورانس فاحتشد الناس في قاعتها منتظرين نهاية هذه القضية والحكم فيها . أتي بالمنكود مكبلا وقد شاب شعره وتقوس ظهره تحت عبء الهموم التي داهمته في أواخر أيامه فكان وقعها شديداً على نفسه حتى كاد يختبل عقله

قادوه بين هذا الجمع المحتشد حتى وقف موقف المجرمين وقد اكتنفه الحرّاس شاكي السلاح . وقف بينهم حائرا ذاهب اللب ضائع الرشد

مرّ بنظره التائه على هؤلاء القوم فلم ير الا مشفقا عليه رائفا به فذرفت عيناه الدموع السخينة ثم ارتفع شهيقه بالبكاء فلم يبق من احد في القاعة الا وترقرق الدمع في عينه اشفاقاً عليه ورحمة به . ثم اهتزت ساقاه اعياء وكاد يسقط فأتوا اليه بمقعد جلس عليه واعتمد رأسه بين يديه وغاب في مهامه الفكر حتى نبهه الحارس بجانبه الى اجابة القاضي على سؤاله

قال القاضي

— لعلك وعيت ما سرده حضرة النائب من تفاصيل ارتكابك للجريمة الشائنة التي قمت بها فما قولك؟ الك اعتراض. واين محاميك ؟

— لم اع شيئاً ولا اعلم من امري اكثر من اني بريء. ليس لي من محام فلست اريد الرأفة بل اريد العدل . . . . لست اعدم الدفاع عن نفسي فسلوا اجبكم

— ان محور التهمة مبني على المعطف والقفاز فافسر لنا عنهما ودافع عن نفسك ازاء هذه الشبهة

— ولكن ليس لدي ما اقول ورب السماء في هذا الشأن .. خرجت تلك الليلة المشئومة من قصري وارتديت به ولا اعلم ما فيه وسرت هائماً في الشوارع حتى وصلت جهة النهر فوقفت هناك طويلا فأعياني التعب فرجعت الى قهوة السلام وشربت هناك شيئاً من الخمر وعدت وأويت الى مضجعي . . . . ثم أفقت في الصباح واذا برجال الشرطة يداهمونني ويقولون باني مريض . فلم افهم مرادهم فشكوا في امري فسألوني عن المعطف فأتت به امرأتي ففتشوه ورأوا فيه ما رأوا ووالله لم يكن لي علم بما فيه مطلقاً . . . . . يتهمونني بقتل اخي هربا من دفع مائة الف فرنك . . . أأهرب انا من دفع هذا الدين ولي من العقار ما يقدر باضعافه . . . . أهذا محرك الجريمة الذي بنيتم عليه قبضكم علي وانا في هذا السن وفي هذا الاعياء . . . ألا تخشون الله حتى تتهموا البرآء . . . آه يا ربي ماذا فعلت حتى أذوق مثل هذا العذاب

فرثي له القاضي وتأثر له وقال

— ولكن بماذا تعلل وجود القفاز الآخر بجانب جثة أخيك . . وهو عين القفاز الذي وجد في جيب ردائك

— وكيف لي أن أعلل ما ليس لي به علم

— أراك قد أخطأت في عدم اختيار محام عنك ليجيب على أسئلتي

— وماذا يفعل المحامي إذا كنتُ جاهلاً ما تلصقون بي من التهم . . ولو فرض وأردت محامياً عني فمن يرضى لنفسه بذلك وهو يخشى عدم نجاحه في هذه المسألة

— سأكلف محامياً يدافع عنك وذلك خير لك وأبقى

فوقف رجل عليه سيماء النبل والشرف وقال

— اني أتطوع في هذا السبيل يا سيدي القاضي

فصاح كلود بصوت كالبكاء وبلهجة الشاكر

— ماركيز دو فورفيل . يا لله ما أطيب قلبك ياصديقي

— خفف عنك فلا أراك الا بريئاً يا عزيزي . صبراً

ثم التفت الى القاضي وقال

— انا المحامي عنه فسل ما تريد يا سيدي

- نفس السؤال الذى وجهته اليه . . كيف تعلل وجود القفاز بجانب الجثة

- اسمح لي يا سيدي بسؤال طفيف قبل الاجابة

- تفضل

- متى خرج كلودمن قصره للنزهة على رأيه أو لارتكاب الجريمة على رأيكم

- سله يجبك

- كلا بل أسأل حضرة النائب الذي ألقى عليه تلك التهمة

فهض هذا متثاقلا وقال

— لم اعرف تحديد الوقف . ومع ذلك ماذا يهم اذا ثبت تغيبه عن بيته في تلك الليلة في مكان لا يقوى على ايضاحه

— نعم . وانما اريد ان اثبت لكم براءته بشاهد لا يقوى أحد منكم على تكذيبه

— أراك تهين القضاء بكلامك هذا . فقل ماذا يخامرك

— لا شيء سوى اني اريد أن أسأل ما دام لورانس سؤالاً عنّي

فأجابه القاضي الى طلبه ولم تمض برهة حتى دخلت جنفياف واجمة مضطربة فقال لها القاضي برقته المعهودة

— تفضلي ايتها السيدة وأجيبي حضرة الماركيز المحامي عن زوجك على سؤاله

— تفضل يا سيدي

— تكرمي عليّ يا سيدتي باخباري عن ساعة خروج زوجك من قصره

— كان ذلك يا سيدي .... نحو .... نحو .... الساعة ... نحو الساعة السادسة مساء

فصاح كلود

— ماذا تقولين .. الساعة السادسة مساء ... كذبت والله ... ماذا يا جنفياف .. ألم أمر أمامك بالحديقة نحو منتصف الساعة الثامنة ؟!

فصاح الماركيز:

— ولو ياصديقي . . . ان في قولها الكفاية . .شكراً ياسيدتي فقد اكتفيت

فانسحبت المرأة وقد ارتعد جسمها من صوت المحامي الدّال على الارتياح ولم تخرج بل جلست في مكان الشهود وانتظرت ترى النتيجة

ثم نودي على بقية الشهود الذي مر ذكرهم من قبل فأعادوا ما قالوه لرئيس القسم المسيو جول ميشيل . ولما سئل الخدم قالوا بانهم لا يتذكرون تماماً ساعة خروج سيدهم ولكنهم يظنون انه برح القصر الساعة السادسة مساء وليس قبل ذلك

فنظر القاضي الى المحامي وقال له

— أليس لديك من طلب ياسيدي

— لي طلب واحد ياسيدي وهو اني اريد اتمام البحث في شأن الدليل الذي اتيت به ولا يستغرق مني هذا البحث يوماً واحداً

— اذا كان يوماً واحداً فلا بأس

فنظر كلود الى محاميه وقال له

- وماذا تبغي بهذا التأجيل ياصديقي . . . آه اسمعتها وهي تكذب في شهادتها

- صه . ودعني اتمم بحثي

وانتهى دور القضية وخرج المتهم محفوراً بالحراس الى سجنه وخرج الماركيز المحامي حتى اذا ما توسط البهو الخارجي قابله شاب كريم الهيئة ومد يده ليصافحه وهو يقول

- دعني اصافحك ياسيدى فقد رأيت من كريم عواطفك نحو ابي ما جعلني انوء تحت عبء جميلك

فدش له الرجل وقال

- أأنت ابنه . . المسيو مارسيل الطبيب . لي الشرف الكبير بمعرفتك . . وحبذا لو اجبت دعوتي الى العشاء الليلة

فاجابه مارسيل

- سأجيبها بكل طيبة خاطر ياسيدى

فألقى اليه الماركيز بعنوانه وتأبط ساعده ومشيا يتحادثان

الفصل التاسع

﴿ وعند صفو الليالي يحدث الكدر ﴾

حوالي الساعة السابعة من ذلك اليوم نفسه أمّ ماريوس نحو حليلته في قصرها حتى اذا ما تلاقيا قال لها بلهفة

— ماذا تم في القضية . وماذا كان الحكم

— لم تتم القضية بعد . . وتأجلت الى الغد . . اتدري ماذا تم اليوم . . كان كلود قد ابى اختيار محام عنه فلما عجز عن رد اسئلة القاضي قام المار كيز دوفورفيل وتطوع للمحاماة عنه . . .

— وماذا فعل هذا الابله

— دعاني لسؤال القاه عليّ . . . سؤال صعب جداً والحق يقال

— وما هو . قولي

— سألني عن ميعاد خروج كلود من منزله تلك الليلة

— يالله الشيطان . فاتتنا هذه النقطة . وماذا قلت . نعم بماذا أجبته

— حوالي الساعة السادسة مساء

— السادسة مساء . كيف . حقا انك لبلهاء . . . ما هذه الغباوة ياجنفياف . . أيعقل انه يخرج الساعة السادسة من بيته ويقوم من ليون الساعة التاسعة . حقا لقد حبط عملنا كله بجهلك

فشهقت المرأة وقالت باضطراب

— أواه لقد فاتني هذا . . ألا اف لي . . . ولكن دعك من هذه السفاسف . . قلت اظن ولن يكون الظن دليلا على التأكيد

— هل قلت أظن ام اجزمت بالقول

— اظن اني قلت اظن

— ما اكثر ظنك وأقل فكرك . . لا بأس . وكيف حالك الليلة

— لقد بلغت روحي التراق . . ان اصبر بعد على عدم الذهاب الى عصابتك . . .

— ولكن ماذا يقول خدمك اذا رأوك خارجة معي

ولم يسبق لك الخروج مدة سجن زوجك

ـ خدمي . وماذا يفعلون وهم اطوع لي من البنان . . العلك لا تريد لي الذهاب لعله في نفسك . . . اذا كان هذا يسرك فسأرضخ

ـ ليس هناك من علة تمنعك من الذهاب ولكني كنت اود لك الذهاب بعد الحكم على زوجك حتى يخلو لك المكان ونجعل هذا القصر مأوي لنا جميعاً

ـ كلا بل اريد الذهاب الى هناك . . هلا ما اخذتني معك الليله بحق حبي لك يا ماريوس

ـ آه منك ما أعندك . . . حسنا سآخذك معي . . . . هلمي قبل الى تناول العشاء ثم البسي افخر ما لديك حتى تزيدي بهاء على بهائك وتقنعي بقناع يحجب وجهك وعند ما ينتهي الرقص ترفعينة فترين اذ ذاك شدة وقع جمالك في نفوسهم

ـ شكراً لك ياحبيبي . . . هلم الى العشاء . . اني اكاد اطير فرحاً

ثم قادته الى حيث مائدة جمعت ما لذ وطاب من طعام وشراب حتى اذا ما اكتفيا منهما ارتدت أبهى حللها وتقنعت بقناع حريري أسود وسارت في سيارتها تريد المأوى مع خليلها

. . . . . .

كان بهو العصابة في تلك الليلة في غاية من الرونق والترتيب لعلم العصابة بحضور رئيسهم وخليلته ليرأسها عليهم وكان ماريوس قد بعث اليهم أحد أعوانه بهذا الخبر

أفرغ القوم جهدهم في تنسيق الزهور وترتيب الموائد وصف قناني الخمور عليها وأواني الشراب الفاخرة . ضاءت شموع الكهرباء فزاد المكان بهاء واكتسى حلة من مختلف الالوان الزاهية على جدرانه وأرضه وسقفه فكان منظراً يأخذ بمجامع القلوب

تهادى القوم في هذا المكان وقد ارتدوا أثمن ثيابهم وأشرقت بينهم النساء يخطرن بينهم وقد لمعت على صدورهن ورؤوسهن مختلف الجواهر والحلى

وكانت برتا تسير بين القوم منقبضة الصدر لغياب حبيبها

لوسيان عنها وتأخره عن الحضور منذ يوم عودته. ثم رابتها غيبة برنار أيضاً فجعلت تتساءل عن غيابهما ولا تجسر على السؤال عنهما ولم تسمع أحداً يأتي بذكرهما

ثم مرت برهة ودخل نافار (أو دو نافار فقد كان نبيلا) وحيا القوم تحية لطيفة ردتها عليه العصابة بحماس زائد

— فليحي نافار . فليحي وكيلنا النبيل

فأقبل عليهم متلطفاً في كلامه معهم رافعاً أية كلفة من حديثه مع الرجال والنساء حتى صاح بينهم واحد

— أين لنا برئيس مثلك في لطفك يا موسيو نافار . شتان ما بينك وبين الرئيس ماريوس ... والله لو لا فظاظته وعجرفته لم ير مثلي سبيلاً الى قولي هذا

— أو ترضون بي رئيساً اذا ما سألتكم ذلك

فصاح أكثر العصابة بصوت عال

— نعم نعم نرضى بك رئيساً علينا. فليحي رئيس المستقبل

وفي تلك اللحظة هبط لوح الممر السري وظهر ماريوس وقد تأبط ساعد خليلته الملثمة

نزل ماريوس من ذلك اللوح وقد رمق نافار بنظرة حقد هائلة بينما كان هذا يصيح بالقوم

— ألا هبوا أيها السادة من أماكنكم وحيوا الرئيس والرئيسة

فقامت الرجال والنساء وانحنوا احتراما للقادمين وصاحوا

— فليحي الرئيس ولتحي الرئيسة الفتانة

ثم توسط الاثنان صحن البهو يتبعهما نافار وقد شخص بنظره الى قوام المرأة وقد شعر بميل قوي اليها . وسارت العصابة تتوافد على جنفياف وهي تحيي الرجال بالابتسام والنساء بأحناء الرأس حتى تم التعارف وخليلها واقف يرقب حركات نافار وقد تطرق الحقد الى قلبه

وبعد مدة وجيزة أمر الرئيس بافتتاح المرقص فهب القوم الى الرقص على عزف الموسيقي وصار الكل يتناوب المرأة تلو المرأة ويزدرد الكأس تلو الكأس حتى دبت الخمر في رؤوسهم واشرقت وجوههم بشرا وسعادة وجنفياف بينهم تراقص ماريوس مرة ونافار اخرى وقد لذ لها احترام

القوم لها واجلالهم اياها

دبت الخمر في رؤوس اللصوص فصاروا يصيحون

— النقاب النقاب . فليسقط النقاب . وليشرق علينا محيا الرئيسة . نريد التمتع بمرأى وجهها فنحن في شوق كبير الى ذلك

فصاح ماريوس وقد اعتلى مقعداً وقلدته في ذلك خليلته وقال

— سمعاً يا قوم . فليكشف النقاب . وليمتع العصابة نظرهم بهذا المحيا الجميل

ثم كشف بيده القناع عن وجه خليلته فصاح الرجال صيحة الدهشة والنساء صيحة الغيرة والحسد

— يا لله . ما هذا الجمال النادر . هنيئاً للرئيس بهذا المحيا البديع

وتهافت القوم على الشراب والمسامرة حتى أخذ منهم التعب كل مأخذ

. . . . . .

بينما كانت العصابة تهتف تحية لمحيا جنفياف بعد رفع

النقاب وقفت عربة كبيرة ضخمة امام حانة العم جاك يزيد طولها عن الستة الامتار وعرضها عن الثلاثة مسدودة الجوانب والسقف يجرها جوادان يتصببان عرقاً من ثقل الحمل وطول الطريق . ثم نزل سائقها وهو كما يظهر للناظر من سكان الريف قد لبس رداء قذراً تدلى حتى ركبتيه وسروالاً واسعاً غطى قدميه وقبعة من صوف عريضة سقطت الى قرب الحاجبين وقد رفع بمؤخر رداءه على قفاه اتقاء برد الليل ورطوبته

نزل هذا السائق الريفي من مقعده ويمم نحو الباب وطرقه فلما سمع صوت اقتراب صاحب الحانة جرى بخفة نحو مؤخر العربة ووقف ساكناً

خطا نحوه العم جاك بضع خطوات حتى اذا ما اقترب منه ونظر الى عربته الهائلة انحنى له احتراماً وقد ظنه فلاحاً أتى من الريف بمحصول البطاطا او التبن يريد بيعه في سوق باريس

— ماذا تريد يا ابن العم . ألا تحضر الى الحانة وهناك

تجد كل ما تطلب من مأكل ومشرب

ـ كلا لست بحاجة الى الطعام فقد ملأت سلالا صغيراً منه بجانب مقعدي . ولكني أريد منك زجاجة من الجعة الباردة تأتي بها اليّ هنا وتفتحها لي فاني أريد شربها وأنا في الطريق

ولم يكد الرجل يدخل حانته حتى نزع الفلاح قفل عربته وترك بابها مردوداً يفتح من الداخل بأقل دفعة

ولم ينته من عمله حتى عاد العم جاك بالزجاجة وقال

— أتريد أن أزيل سدادتها ياسيدي

— نعم اذا تكرمت

فانتحى العجوز ناحية من العربة وقد أسند الزجاجة بين فخذيه وانحنى يريد أزالة السدادة واذا بالسائق ينقر على باب العربة نقراً خافتاً ولم يكد ينتهي من ذلك حتى تدفقت العربة عدداً كبيراً من رجال الشرطة يبلغون نحو الثلاثين فانقض السائق على العم جاك وهو يكبل يديه ويعقل رجليه

— كلمة واحدة تخرج في أثرها روحك ايها الشقي

— لوسيان . يالله

فسد فاه بكمامة أعدها له وطرحه جانباً وأقام عليه حارساً أمره بقتله عند أول حركة تبدو منه . ثم نظر الى رجال الشرطة وقال

هيا ادخلوا الحانة وقفوا ولا تحركوا ساكناً وكل من خرج من المأوى كبلوه وسدوا فمه وأياكم واحداث أي صوت فيذهب تعبنا سدى وتفر من أيدينا العصابة

ثم دخل فاتبعوه ووقف بجانب البرميل الكبير وقد وقف بجانبه موريس ومارسيل وقد آذن الليل بالانتصاف

. . . . . .

ازداد انهماك العصابة في الشرب والمغازلة حتى وهت قواهم وتخدرت رؤسهم فقاموا يطلبون من الرئيس وخليلته الاذن بالانصراف فأرجعت المرأة النقاب على وجهها وقام الرئيس يصافح كل من أراد الرحيل

وبينما كان ثاني رجل يحيي الرئيس والخليلة كان أحد

رجال الشرطة يصيح الى لوسيان

— واحد :

وكبل يد الشقي وسار به نحو المركبة

ولم يلبث الامر هكذا زهاء نصف الساعة حتى صاح ذلك الشرطي للوسيان

— ثلاثة وعشرون

فقال لوسيان لمارسيل وموريس

— هلموا الى هـذا البرميل فلم يبق سوى الرئيس ماريوس ووكيله نافار وجنفياف . . أيها الشرطي قف ببرتا ناحية هنا فقد أخشى عليها برد الليل . . . اذهبي ايتها الحبيبة وثقي بالنجاة اذا أحسنت السلوك معي

ولم يكدوا يخطون داخل البرميل خطوة حتى سمعوا جلبة قوية داخل القاعة أعقبها دوى رصاصة وصوت هبوط جسم الى الارض فتقهقر الرجال مسرعين خارج البرميل وشهر لوسيان مسدسه وانتظر

الفصل العاشر

(آخرة الجاني . الاقرار)

لم يكد يخرج آخر رجل من العصابة من البهو حتى خطا نافار نحو جنفياف وهو يتمايل سكراً ولمس كتفها برقة وقال لها همساً بينما كان ماريوس قد أثقلت رأسه الخمر فلم يعد يدري ما يجري حوله

— هل لك في كأس من هذه الشمبانيا الفاخرة ايتها الحسناء . يالله من شدة عجرفتك . ما هذا الكبر والصلف هيا . هيا الى المائدة فقد أخذ الكرى بمعاقد أجفان خليلك فلم يعد هنا من رقيب . . . قلت لك هيا فما هذا السكوت الطويل . .

— أف لك من سمج . . دعني ايها الرجل . . ما هذه الحماقة التي تأتيها

— حماقة . والله لو قالها غيرك لاعدمته الحياة في لحظة . ألعلك لم تعرفيني بعد ايتها الفاتنة . أنا ريموند دونافار وكان جدي السابع حاملاً لاسلحة دوق برنكاس تحت لواء

لويس الحادي عشر . . أنا نبيل أو يخيفك حب نبيل

— يالك من لص نبيل

فصاح بها صيحة أقلقت ماريوس من ذهوله وأرهف أذنيه ليسمع مايجري حوله وقال نافار

— انها أهانة لي وأية أهانة . ولن يمحوها الا قبلة من فيك . .

وهجم عليها بشراسة وشد على كتفيها وجذبها اليه وقبلها من فيها واذا بلطمة قوية أصابت كتفه فأنّ أنين الموجع ودار برأسه نحو اللاطم واذا به يرى ماريوس واقفاً تسطع عيناه ببارق الحقد والغضب ويصيح

— ماذا فعلت ايها الشقي . أتتجرأ على أهانة صاحبة رئيسك . . قد حان حينك ولن تجد الى الخلاص سبيلاً

فصاح به نافار

— تباً لك من فاتك سفاك للدماء أو تظنني أخشاك . . والله لو اقتربت خطوة لردتك صفعة مني على هذا الوجه الدميم . . . . عجباً لك . . . أغرك خضوع لصوصك فبت

تتطاول عليّ . . . خذ هذه جزاء وفاقاً وأرني ما وهبك الله من قوة

وأعقب كلامه بصفعة أصابت وجه ماريوس فصرخت المرأة رعباً وقد ضمت قبضتيها الى خديها ووقفت تنظر ما يكون من خصام الرجلين

أنّ ماريوس أنين الحاقد الناقم وصاح بصوت لعب به الغضب أي لعب

— نافار . لقد ساء فألك فيما أملت . استغفر الله قبل أن تلقاه فلن تخرج بعد حياً . . نافار . غفرت لك تطاولك على منصبي وقد سمعت تأثير خطابتك على العصابة ولكن لا غفران لذنب تطاولك على حبيبتي . . . نافار . لقد كان ذنبك عظيماً وسيكون عقابي أعظم

— صه ايها السفاك . أو تظن ان يدك تنالني بسوء وهي أقصر من أن تمد اليّ بأذى . تباً لك من لص سفل ووغد ذميم . . ماريوس . ان دم ألبير لن يذهب هدراً فخذ هذه بواء بدمه وعقاباً لك على قلة تهذيبك

وشهر عليه مسدسه يريد أطلاقه فعاجله الشقي برصاصة أصابت قلبه فسقط نافار على الارض ولم تمر لحظة حتى فاضت روحه الى حيث الجزاء والعقاب

ومرت لحظة قصيرة أفاق بعدها ماريوس من ذهوله ورأى جسم نافار ممدداً فركله بقدمه وعمم نحو جنفياف قائلا

— هيا بنا ايتها الحبيبة فلم أكن اريد لك والله هذا المنظر الفظيع . . . . تباله من غر ظن ان معاكسة رئيسه شيئاً هيناً .

ثم أسرع نحو المنفذ ولم يكد يخرج من البرميل حتى هوى صارخاً مضرجاً بدمائه من رصاصة أطلقتها عليه يد لوسيان فاصابت رئته

. . . . . .

أطلق عليه لوسيان المسدس من موقفه السابق فهوى الشقي على رأسه فوق أرض الحانة تحت قدمي لوسيان فصاح عند ما رآه وقال بصوت يقطعه النزع

— لوسيان . عاد الى الحياة وانتقم . . . آه . . لم يخب ظني . . عندما . . . شعرت بحقدي عليه . . . آه . جنف . . .

ياف . . . الوداع . . . . سأم . . . وت ولم . . . أكد . . .
أتـ . . . تع بك . . . طويلاً . . . أخاف . . . الموت . . . . آه

ثم اختلج صدره وسكن صوته

فاقترب احد رجال الشرطة منه وفحصه ثم رفع قبعته وقال

— لقد مات

فصاح لوسيان

— الى سقر وبئس المقر . ألا بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين

وكانت المرأة في أثناء ذلك قد انكبت على جثة خليلها وقد علا صوتها بالبكاء والنحيب وجعلت تصرخ في وجوه القوم بصوت المجنون

— قتلتموه . . . ماريوس . . حبيبي . . آه يا ربي . . . ما هذه الليلة المشئومة . . . ماريوس . . . ويلاه . مات . . مات ماريوس يا للسماء

ثم نظرت الى لوسيان نظرة الحقد لهائل وقالت

— وأنت من أنت يا من سلبتني أثمن جوهرة . من انت أيها القاتل السفاك . ويلي ماذا يكون مصيري بعدك

يا ماريوس . . . آه

ثم شهقت بالبكاء وكأنما البكاء قدأزال عنها ذهولها فرأت الحقيقة ناصعة أما عينيها فذعرت وصاحت

— الشرطة . رجال الحكومة .. يارباه ما هذا الحلم .. أوَ قد حانت ساعة العقاب . . . رأفة بي يا سادتي فلست أعي ما أقول . . ما هذا . ماريوس قتيل . . . نافار مقتول . وأنا واقفة اندبهما . يا رباه ما هذا الموقف . لقد ضاع رشدي . . . ماريوس . ماريوس

وانكبت على جثته تقبل وجهه وتبلله بدموعها

فجرى نحوها لوسيان وجذبها من شعرها وأركعها تحت قدمية وصاح بها

— اكشفي عن وجهك القناع ايتها الحية ... ان ذلك الوجه الذي ذهل القوم من جماله لا أرى الا فيه صورة الشيطان أكشفي عن قناعك حتى يعلم القوم من أنت

فصاحت تحت قدميه بصوت الذليل

— رفقاً بي يا سيدي رفقاً . أنا امرأة ضعيفة وعار عليك أن تفخر عليَّ بقوتك

— كفاك خداعاً أيتها الافعى . أو هل رأفت بزوجك الشيخ حين قذفت به بين أيدي خليلك

— ويلاه . . . . أو يعرف هـذا . آه ذهب الامل وضاعت الحيل

— لقد وضح الصبح لذي عينين . . . . كفى

ثم جذب لثامها عن وجهها بقوة فانتزعه منها وصرخت متأوهة فقال

— ها هي جنفياف ما دام لورانس ايها السادة . ها هي مدبرة الجريمة والمحرضة عليها . ها هي جاحدة الجميل ناكرة الاحسان . جنفياف . جنفياف . لقد قوضت ركن أسرة بحالها فلأقوضن ركن حياتك بيدي

ثم استل خنجراً لمع نصله في ضوء مصباح الحانة وقد ظهرت على وجهه ملامح صدق العزيمة . وقال

— اني رجل اذا ما قال فعل . والله لاغمدن خنجري في صدرك اذا لم تخبرينا بحقيقة الخبر . . . . لن يمنعني عن اتمام وعيدي لك مانع . . . فانظري في أمرك . . . إما اقرار تام بكل ما تم وهناك تتجاوز عن سيئاتك ونطلب رأفة القضاء

وإما سكوت أجعله أبدياً بخنجري هذا . . . انظري في أمرك وتبصري . اقرار فنجاة أو صمت فموت

— آه يا ربي . . . ما هذه الساعة الهائلة . . . أأقر وما بعدها الا السجن والعذاب . أم اصمت فأموت وأنا في شرخ الشباب . . . بالله يا سيدي

— الوقت ثمين . . . لكِ دقيقة واحدة وبعدها . . .

وهز لها الخنجر وقد أبرقت عيناه تهديداً

فرأت سيماء الصدق في وجهه فخافت الموت وقالت

— أو تضمن لي النجاة اذا ما أقررت

— ليس من نجاة الا باقرارك ... سأنال رأفة قضاتك عليك . . . ذهبت الدقيقة فابدأي والا فموتاً تموتين

ورفع يده بالخنجر

فصرخت عند ما رأته يكاد يهوى به عليها ورفعت ساعدها مستغيثة وقالت

— سأقول . سأقول . . أ . . ان منظر الخنجر يرعبني فأنزل به يدك فلست أقوى على القول والنظر اليه معاً

فأغمد خنجره وجلس امامها وقال

— ليس لك من شفيع لديّ. قولي الحقيقة والا فأنت أعلم

— نعم نعم. سأقولها. وليفعل الله ما يريد . . . احبني كلود لما كنت استخدم عنده كنموذج لصوره ... فوافقته على الحب ولكن لم يلبث ان هجرني . . .

— ها . اراكِ عدتِ الى الخداع ولن يهديك الصواب الا خنجري .

ومدّ يده نحو مقبضه. فصرخت

— كلا كلا أنا . أنا التي هجرته لكبره ولضعفه و . . و . . لذهاب ماله ... وقد كنت احببت ماريوس من قبل ... آه يا ربي (ثم بكت لتذكرها ماريوس) . . . فرجوته الخلاص منه . . . ولكن الله يعلم اني لم اكن أريد لنفسي الخلاص . . بهذه الطريقة . . . آه . . . أكاد أموت رعباً من من هذا الموقف . . . هلا رحمتموني ايها السادة

— تابعي الحديث فالوقت من ذهب ... أتمي اقرارك فهو منجاة لك

— آه . . سمعاً . . سمعاً . . أخبرته عن خطاب أرسله البير الى . . . زوجي . . ينبئه فيه بطلب رد عارية مائة الف

فرنك كان قد استدانها منه . . زوجي . . فلما قرأه قال لقد آن خلاصـك فسألته الايضاح فلم يزد . . . ثم طلب مني معطفه ... وكان لزوجي معطفان من لون واحد ... فأعطيته احدهما وقفازين أبيضين . . . فذهب بها ولم يعد . . . آه . .

(ثم شهقت بالبكاء)

— وبعد . أراك تريدين أطالة الوقت سدى . هيا . وبعد

— عاد الىّ في الليلة التالية . . . ومعه المعطف والقفاز وقال لي ضعي هذا القفاز والرسالة في جيب المعطف . حتى اذا ما عاد . . زوجك . . ضعي هذا المعطف مكان الآخر الذى هو لابسه . . . فاذا ماجاءتك الشرطة غداً . . . وطلبوا منك المعطف . . وسيطلبونه . . هاتي لهم هذا . . . . . هذا كل ما كان . رحمة بي ايها السادة . . أني أشعر بالموت يدب الىّ من هول هذا الموقف . . آه . يا ربي

— ولم يخبرك بما فعل . أليس كذلك

— بلى

— عدت الى الخداع وسأعود الى الخنجر

— كلا كلا . قال لي . يا رباه . . أنه قتل ألبير في القطار

بعد ما دعاه الى الحضور الى باريس برسالة برقية باسم . . زوجي . . يخبره فيها بانه مريض . . . هذا كل ماحصل والله يشهد بصحة ما أقول

فصاح بها مارسيل وقد سكت طويلاً

— ومتى خرج أبي من منزله ليلة الجريمة

— الساعة السادسة

فضحك لوسيان ضحكة ارتعدت منها فرائص المرأة وقال

— ها . . أراك تودين الموت . فلا بأس

— كلا . . . حوالي الساعة الثامنة مساء . . . كفاكم أرهاقاً لي فقد وهنت قواى

ثم خرجت مغشياً عليها تحت قدمي لوسيان

فصاحت الشرطة

— يا لها من شقية

وصاح موريس

— كبلوها . كبلوا الشقية . وقودوها الى العربة فلا يزال بها مكان كاف لها . آه منك ما أغلظ قلبك وأقسى فؤادك . . . تبالك من أفعي . . صبراً . . فسيكون العقاب هائلا

ثم حملوها وهي مغمى عليها الى العربة وسارت بالاشقياء نحو القسم

ولم يبق من هذا الجمع الا مارسيل ولوسيان وموريس وبرتا

أنقذ لوسيان حبيبته برتا وخاطبها بعد ذهاب الجماعة

— لقد رأيت بعينيك يا برتا موقف الآثم ومصرع الظالم . أني آمل باصلاح نفسك فهلا طاوعتني وعملت بارادتي فتكونين لي زوجة . . لم أرمنك ما يضيع الامل في تهذيبك ولم تكوني بأشقى مني يوم كنت لصاً . انظري الىّ الآن أترين في موقفي هذا ما يشين . انظري الىّ وابصري مافعلت الاستقامة بي . رددت شرفاً من وهدة العار . انظري نتيجة تهذيب النفس وتقويمها . عرفت الجميل وأحببت الوفاء . خدمت الانسانية وفضحت الوحشية . هتكت ستر اللصوص وكم أزهقوا من نفوس . برتا . لعل هذا الموقف الهائل قد نال منك فغير من خلقك وقلب من طبعك

— لوسيان . رأيت العبرة واعتبرت بها . آوني اليك أكن لك أوفى قرينة . فلست أجد السعادة الا بجوارك . . وسأرمي بتلك الحلية حتى لا يتدنس صدري بحملها . . .

— كلا بل ابقيها على صدرك . لم آت في سبيل الحصول عليها أثماً ولا ريبة . اشتريتها من مالي وقد أفادتني في سرد حكايتي الكاذبة للرئيس .

— أو لم تكن لصاً حينذاك

— كلا . ولم أكن الا جاسوساً شريفاً

— آه ما أغبطني بحبك يا لوسيان

وتعانق الحبيبان برهة

ثم قال مارسيل

— هلموا الى القصر فاليوم خمر وغداً أمر . . . هيا معنا يا موسيو موريس فانت في حاجة الى الراحة . هيا

وساروا قاصدين قصر كلود بينما كانت العربة الهائلة تفرغ شحنها في مركز الشرطة

الفصل الحادى عشر

﴿ البراءة ﴾

لم تكد تدق الساعة ثمانية في صباح اليوم التالي حتى كان مارسيل ولوسيان واقفين في شرفة من شرفات القصر

يتحادثان وقد ظهرت على نبرات صوت مارسيل الحزن الكامن

بينما كان لوسيان طلق المحيا يتدفق وجهة غبطة وسعادة

ثم مكثا يتحادثان برهة حتى لحظ لوسيان ما في صوت مارسيل من الخفوت وما على وجهه من معالم الحزن فصاح قلقاً

— ما بالك يا سيدي . أتشكو ألماً . يا لله من اصفرار وجهك وغور عينيك . . لم تنم البارحة وأقسم على ذلك

فأراد مارسيل أخفاء عواطفه عبثاً أذ قال

— ليس بي من شيء بل ان فرط ما عانيت البارحة قد أثر بي . . . انه عارض زائل . ولا يلبث ان يعود لوني الى طبيعته . . . هلم الى مائدة الافطار فلا أظن الا موريس قد صحا من نومه

— ما هذا التمويه عليّ يا مولاي . أأنت عديم الثقة بي حتى لا تبثني شكواك . ألا ترى ان ذلك يؤلمني يا سيدي بالله خبرني ما بك حتى تطمئن نفسي

فتنهد مارسيل وقد زاد اصفراراً وقال

— كلا لم أنم البارحة بل قضيت الليل كله وانا كالملسوع لا يغمض لي جفن ولا يزورني الكرى . . . لوسيان انك

صديقي الوفي فلا بأس من ان أبوح لك بسري وان كنت قد حاولت كتمانه حتى عن نفسي

— قل . قل يا سيدي

— خرجت البارحة حوالي الظهر من المحكمة وقد تعارفت مع الماركيز دو فورفيل المحامي عن والدي . فاظهرت له امتناني العظيم ليده التي أسداها الى أبي وهو في تلك الشدة فسره مرآى ودعاني لتناول العشاء على مائدته . . فذهبت اليه في الميعاد ولم أكد أخطو عتبة الدار حتى قابلتني ابنته « مادموازيل جوليت دو فورفيل » وتلطفت في المقابلة تلطفاً خلب لبي وذهب بعقلي . . . تأبطت ذراعي وقادتني الى حيث أبوها الماركيز . وفي الطريق جعلت تخاطبني وهي تسيل رقة ورشاقة . . . فلما حان ميعاد العشاء قمنا الى المائدة وانا اجتهد في أخفاء عواطفي من نحوها كيلا يلحظ مني ما يسوءها . ولعلها أدركت حالتي اذ ذاك فلاطفتني كثيراً ودخلنا في حديث تلو حديث وأبوها يكلأنا بعين الرضا . . وصبرت معها زهاء الساعتين حتى كانت الساعة الحادية عشرة فهمت بالانصراف حتى أحضر اليكم وأسير معكم الى مأوى

تلك العصابة . فسألتني زيارتها ثانية وقريباً . فأجبتها الى طلبها وأنا أتلعثم فحاولت تقبيل يدها عند ما شيعتني الى الباب فنفرت نفور الظبي وأشارت بيدها الى الملتقى وغابت عن عيني ولولا وجودي بينكم بقية هذه الليلة لكنت أسوأ حالاً مني الآن

— خفف عنك يا سيدى . ان ذلك لا يستحق منك كل هذا التغيير والاضطراب اني أقسم لك بمكانتك عندي أنك ستفوز بمرامك قريباً ولن يمتنع الماركيز عن قبولك زوجاً لابنته وقد خطب ودك من هو أعلى منه مقاماً واكثر مالا كل الامر الى الله حتى تتم براءة أبيك ثم أخبره بذلك ولن يتأخر الماركيز عن أجابة طلب أبيك

شكراً لك يا لوسيان ما أشرف عواطفك واكرم نفسك

فغمز لوسيان بعينه وقال مبتسماً

— أو تعدني اذا أجاب الله سؤلك فتزوجت بالانسة جوليت ان تختم حفلة زواجك بزفافي على برتا

— أعد . بل أقسم ان الاحتفال لا يروق في عيني الا اذا سطعت فيه برتا تناديك يا زوجي الحبيب

— شكراً لك ياسيدي . جزاك الله كل خير . . . هيا بنا يا سيدي الى الموسيو موريس ثم نقود بعدها الاشقياء الى دار المحاكمة

ثم انطلقا معاً ولا تكاد الدنيا تسعهما لفرط سرورهما

. . . . . .

احتشدت قاعة المحكمة بعلية القوم وسراتهم وكل من اهتم بقضية كلود لورانس وتشوق الى سماع الحكم في أمره ساقهم اليها شوقهم الى سماع مرافعة الماركيز المحامي وما أعدّ من سبل الدفاع لدرأ التهمة عن صديقه . فضاق بهم المكان على رحبه

وظل القوم في حديثهم ما بين راث للمتهم ومشفق عليه وبين مصدق لما ألصق به حتى طرق سمعهم صوت ناقوس رنان وصوت مرتفع يقول

— المحكمة . سكوت

فصمت القوم كأن على رؤوسهم الطير والكل متطلع الى الباب الذي سيخرج منه المتهم محوطاً بحرسه . ولم تمض برهه حتى جيء بالمتهم وجلس على مقعده في قفص المجرمين

وقد حاط به الحرس

ثم قام النائب وقال

— لست أرى من فائدة فى اعادة ورقة الاتهام على مسامعكم فليتفضل حضرة القاضي

وجلس وقد أرهف اذنيه لسماع ما سيقال

صمت الجمع برهة ثم نظر القاضي الى كلود وقال

— هل وافقت على اختيار حضرة الماركيز دوفورفيل محامياً عنك

فأجابه هذا بصوت اوهنه الضعف

— نعم يا سيدي ولي ملء الامل في قدرته على دحض ما ألصقتموه بي من التهم

فالتفت القاضي للمحامي وقال

— أنت تعلم تفاصيل القضية ولا شك. فهات ماعندك

فنهض الماركيز وقد نظر الى صديقه نظرة شددت من قواه وأعادت الى صديقه روح الامل . . . ثم فتح مجموعة أوراقه ونظر اليها طويلاً ثم التفت الى القاضي وقال

— لقد أنابني موكلي في الدفاع عنه ازاء تلك التهمة التى

ألصقتموها به . . عفواً اذا ما رأيتم فى قولي من شدة . .
ولكن هي الحقيقة تدفعني الى التفوّه بمثل هذا الكلام

اتهمتموه ايها السادة بالقتل وعللتم فعله لتلك الجريمة بعطف عنده وجد فيه قفاز شبيه القفاز الذي وجد بجانب القتيل . وزعمتم ان المحرض للجريمة ارادته الهرب من دفع دين عليه . ولمن . لاخيه

لست أعارضكم الآن في هذه النقطة التي أتيتم بها كدليل على أجرامه ولأسر معكم في هذا التيار . فماذا تم منه . قلتم أنه ذهب الى ليون بعد أن كذب برسالة برقية على أخيه ثم قتله في القطار . هنا موضع معارضتي وسترون انني محق في ما أقول

ايها السادة . أسألكم بحرمة موقفكم هذا أن تجيبوني بصراحة . ألم تقل عقيلته البارحة ان زوجها غادر قصره الساعة السادسة وقال خدمه انه خرج حوالي هذا الوقت وليس قبله أليس كذلك . حسناً . . هنا نقطة البحث . هاكم دليل الخطوط الحديدية . أبحثوا فيه عن ميعاد قيام قطر ليون من باريس فلن تجدوا في هذا الوقت قطاراً يقوم منها الى ليون

لست أعجب من عدم التفاتكم الى هذه النقطة. فلستم بمعصومين

فتقطب جبين النائب ودهش القاضي وعم الغرفة صوت اعجاب الناس بالمحامي ورأفتهم بالمتهم وهزئهم بالقضاء

فصاح المحامي

— كلا . لا اريد الحطة من مقام القضاء . وانما هي بارقة أمل لاحت لي أثناء بحثي عما يدفع عن صديقي تهمة ارتكابه لتلك الجناية . . ان القطار الذي يقصد ليون من باريس ليلاً لا يقوم الا حوالي الساعة السابعة والربع ولا يصل اليها الا قرب منتصف الليل . فكيف يتمكن هذا الذي اتهمتموه . من القيام فيه ثم يرجع من ليون في قطار الساعة التاسعة مساء ويقتل فيه أخاه . اظن ان ذلك مستحيل أليس كذلك

فقصف في القاعة صوت الجمهور وهو يصيح

— بلى . بلى . مستحيل نعم مستحيل

وساد الاضطراب برهة ثم عاد القوم الى الصمت عندما رأوا القاضي يشير اليهم بذلك ثم قال

— أن تلك المعارضة متوقفة على قول قرينة المتهم وهي

لم تجزم في قولها

— لنفرض ذلك يا سيدي . ولكن شهادة الخدم أليست بكافية . لم يجزموا في تعيينهم ساعة خروجه ولكنهم قالوا بصوت واحد « ولم يخرج قبل هذا الميعاد » أي لم يخرج قبل الساعة السادسة . وبناء عليه فقط سقط وجه المعارضة في هذه النقطة

ولكن كيف وجد القفاز بجانب الجثة بينما كان الاخر في جيب ردائه

واذا بصوت يصرخ من آخر القاعة

— ذلك لان للمتهم رداء آن من لون واحد ياسيدي القاضي

فدهش القاضي من صوت القائل وقال

— مسيو موريس لوستان . ماذا دعاك الى هذا القول وأنت اول من اتهمه

— ذلك لاني كنت على خطأ ياسيدي وليس الرجوع عن الخطأ بعار عليّ

ثم اقترب منه وقال بصوت خافت

— أوقف الجلسة مدة ربع ساعة حتى أتمكن من

المداولة معك بشأن هذه المسألة اسرع فالوقت في غاية الاهمية

فاعلن القاضي أيقاف الجلسة ربع ساعة الاستراحة

واقترب المحامي من كلود وقال له

— أرى براءتك قد حان ظهورها وان الله قد أوقع بالجاني الاثيم في ايدي الشرطة

— شكراً لك اللهم وأي شكر . راؤول . لست ادري بماذا اكافئك على حسن صنيعك معي . اني لأعجز عن أن افوه بما يكنه لك صدري من الولاء والوداد

— تكفيني صداقتك يا عزيزي فاني ارى فيها كل الفخر

هذا والناس في مقاعدهم متشوقون الى ما سيجري بعد مداولة الشرطي مع القاضي

. . . . . .

ثم عادت المحكمة بعد مداولتها ووقف القاضي ينظر الى المتهم خجلاً ويكلمه بلهجة الاحترام

موسيو كلود لورانس . ان القضاء يرد لك شرفك ويعتذر اليك عن خطئه الذي كاد يجعلك مجرماً وأنت بريء ان الجاني ظهر وقد أقر ولم يعد بعد من داع الى بقائك في

هذا الموقف الشائن . موسيو لورانس . انا هنا ممثل القضاء وقد مددت لك يدي مصافحاً فلا تأباها عليّ واصفح عما ارتكبناه من الخطأ نحوك

فحظت عينا الرجل دهشة وصاح بصوت أبح

— ماذا تقول يا سيدي . ترد اليّ شرفي . برىء هلا تدركون شدة وقع كلامكم عليّ وانا في هـذا الموقف ولا قدرة لي على تحمل هزئكم بي . برىء . نعم انا برىء وليس في ذلك شك يعلم الله . ماذا يا سيدي . أراك تقول الحق فقد مددت لي يدك . هاك يدي . اني شريف ولن ادنس يدك اذا ما صافحتك

— ما قلت الا الحق يا سيدي ولذا ترانى خجلاً من سابق اتهامي لك

— لست معصوماً يا سيدي . كفاني فخراً ان اصافح ذلك الرجل الممثل للقضاء . راؤول . أني برىء . فهات يدك اصافحها . شكراً لك يا سيدي . شكراً لك يا صديقي

وهكذا استمر الرجل يتكلم وقد كاد يجن عقله من وقع الفرح الشديد على قلبه بعد ان كابد لوعة الحزن والهم أياماً طوالاً

ثم عاد بغتة الى القاضي وسأله

— والجاني يا سيدي من هو . واين أراه . آه ويل له اين هو . آه اين ذلك الوحش الضاري والقاتل السفاك

— ان الجاني أفعى يا سيدي وأية أفعى

— امرأة . ويلاه . او هل تظن

— صه

وفي تلك البرهة دخل مارسيل يعقبه لوسيان يقود امرأة ملثمة ثم عدد عظيم من الاشقياء وقد قيدت أيديهم وارجلهم يسوقهم رجال الشرطة شاكي السلاح

فزاد فرح كلود برؤية ابنه وصاح بقلب ملؤه الغبطة

— ولدي مارسيل . هل صدقت ما قيل عني يا بنيّ . آه كيف انت واين كنت تلك المدة

— خفف عنك يا والدي فانا بخير وقد سعيت لاجلك وظفرت بالجاني بفضل صديقي لوسيان

ثم اشار اليه

فلم يلتفت أبوه الى اشارته بل قطب حاجبه وقال بصوت سمعه مارسيل

— ولكن أين هي . ولماذا لم تأت الى هنا

— من هي

— زوجتي . ألم تمر بها في طريقك يا مارسيل

واذا بصوت لوسيان يصيح

— زوجتك . ها هي ياسيدي

ثم رفع اللثام عن وجه المرأة فشهق الرجل شهقة كادت تذهب بروحه وسقط على ركبتيه ومد يديه وقد جحظت عيناه

— جنفياف . مكبلة . . . ما هذا الابهام . . . . ويلي أتراها الجانية .

فصاح لوسيان وقد ارتفع صوته فرنّ صداه في جدران القاعة فكان لسماعه وقع كبير في نفوس القوم

— هاكم ياقوم بالمرأة الباغية . . ها هي الزوجة الزانية . برح الخفاء ولم تعد تخفى خافية . . اسمعوا . . كانت لا تجد كوخاً ولا زاوية . . فأسكنها زوجها القصور العالية . . . كانت فقيرة خاوية . . فغمرها زوجها بالجواهر الغالية . . . كانت ملقاة في قاع الهاوية . . فرفعها زوجها الى المراتب العالية . . . جنفياف . كنت بالامس غانية . . واذا بك اليوم جانية . .

فصاحت الشقية وهي راكعة

ـ ليتني مت معه . وياليتها كانت القاضية

فازداد كلود رعشة وارتعاداً وصاح وقد تاه بصره

ـ جنفياف . جنفياف . . كفرت بنعمتي وجحدت جميلي . فلعنة الله عليك باقية

ثم انقلب مغشياً عليه

فأسرع اليه لوسيال وحمله مع مارسيل فركبا مركبة وسارا به الى القصر

الفصل الثاني عشر

(الخاتمة)

أفاق كلود من أغمائه فوجد نفسه ملقى على سرير في غرفة من غرف القصر ورأى امامه ولده مارسيل واقفاً ينظر اليه نظرة الشفقة والحنان . ورأى بجانبه رجلاً آخر يذرف الدمع ويرفع يديه الى السماء شاكراً لله حسن الختام

فهب الرجل قاعداً في فراشه ثم نظر ذات اليمين وذات الشمال ثم مر بيديه على عينيه مراراً حتى تأكد انه ليس يحلم

وقال بصوت ضعيف

ـ ولدي . مارسيل . أنت هنا . وأين أنا . أراني في قصري وقد كنت أعهد نفسي ملقى في السجن . . كلا بل واقفاً موقف الذليل أمام القضاء . . آه نعم نعم . . أني أتذكر . ردوا اليّ شرفي . . اعتذروا لي . . صافحني القاضي . . . صديقي الماركيز دافع عني . . يا له من شهم نبيل

ثم صمت برهة وقد خانته الذاكرة فلم يعد يقوى على متابعة تخيله . . واذا به يقول

ـ وبعد . وبعد . . ماذا جرى لي . هه . نعم . . رأيتها مكبلة بالحديد واتهموها بالجريمة . و . آه . وبالزنا والفجور . آه . جنفياف . جنفياف . . من لي من لي بمن توفق الى معرفة سرها فأهبه حياتي

فتقدم منه مارسيل وقال له بلطف

ـ سكن مابك يا أبي ودع ذكراها فان ذلك يؤلمك

ـ يؤلمني . تباً لي من شيخ أغواه الحب وعمت عيناه عن حقيقة حاله . ولدي . ولدي . لماذا تركتني وأنا في تلك الشدة

ـ يعلم الله يا أبي اني ماتركتك عن سوء قصد . رأيت اندفاعك في تيار حب قد علمتَ مغبته فأردت الابتعاد عنك علّ ذلك يردعك فتنبذها . . والآن وقد سمح الله بكشف الستار عن عملها فاتركها . دع ذكرها فليس فيه ما يسرنا

ـ نعم . فلأنسها ولأنس أياما شقيت بحبها

فتقدم اليه لوسيان ومعه كوب من الماء المثلج وقال له

ـ تفضل يامولاي بشرب هذا الماء، فأنك في حاجة اليه

فأخذه منه والتفت الى مارسيل وقال له

— من هذا الشاب يابنيّ . ألعلك جئت به من سفرك

— هذا هو الذي هداه الله الى كشف الستار عن أعمال الخائنة . هذا خادمي بل صديقي الوفي لوسيان . أنقذت حياته مرة من خطر الموت اذ كان جريحاً ملقى في الطريق فآويته عندي واحسنت اليه . فأثمر فيه العمل الصالح وقام يريد الوفاء . هذا هو الرجل الوحيد الذي لاقى الاهوال في سبيل رد شرفك فكان ماكان من نتيجة مسعاه

فهب الرجل يريد معانقة لوسيان وقد طفر الدمع من عينيه وقال

— دعني أقبلك يا بني . لست بأقل منزلة عندي من ولدي . شكراً لك ولن أقوى على أيفائك حقك

— عفواً يا مولاي عفواً . يكفيني وأيم الله ان اراكما سعيدين ... شكراً لك اللهم على عظيم قدرتك وجزيل نعمتك ... عفواً ياسيدي دعني أقبل يديك . أنك والد سيدي ومنقذي واني أرى كل الفخر في تقبيلهما

فشد كلود على يد لوسيان وخاطبه قائلا

ـ ماهذا الشعور الراقي وما هذه النفس الكريمة ألا هنيئاً لك يا بنيّ بما وهبك الله

ـ ذلك ما آل اليه عمل ابنك ياسيدي . هذا ما لقنني أياه من دروس التهذيب والاصلاح

واجتمع الثلاثة يتحادثون برهة طويلة وقد رفرفت عليهم السعادة وساد بينهم الوئام

. . . . . .

كان قصر كلود لورانس في مساء اليوم التالي يتلألأ

نوراً وبهاء . سطعت شموع الكهرباء بين الاشجار وحول الغدران وعلى قمم هضاب الحديقة وشرفاتها وغرفها حتى كانت شعلة من نور أضاءت حي الشانزيليزيه باجمعه

أقيمت حفلة بديعة وسهرة شائقة حوت كرام الاسرات واعرقها وقد اجتمع الرجال والنساء يتحادثون بسيرة كلود مارسيل ثم قاموا الى المرقص فصدحت الموسيقى بأنغامها الشجية ودارت الكؤوس وعمّ السرور وساد الطرب

اجتمع مارسيل بأبيه في تلك الشرفة التي اعتلاها لوسيان عند ما كشف سر جنفياف وبثه ما يكنه صدره لابنة الماركيز دوفرفيل وما كان منه عند ما زارها فابتهج أبوه لطلبه وقال له

— لك ذلك يا بني . وسأكلم الماركيز في الامر وان يرد طلبي . ان ما فعله معي لاقوى دليل على حبه لي وعطفه عليّ . نعم . فلتهنأ بها فلا تصلح الا لك ولا تصلح الا لها

فركع مارسيل على ركبتيه أمامه وقد قبل يديه وصاح به

— شكراً لك يا أبي ما أكبر همتك وأرق قلبك .

فتأبط ابوه ساعده وسار به الى حيث القوم مجتمعون يهتفون هتاف السرور والطرب . قاد الوالد ولده بيده حتى

رأى الماركيز مقبلا عليهما وهو يقول

— أين كنتما يا عزيزيّ . اني لفي غاية الشوق الى مرآكما . تعاليا نجلس هناك تحت هذه الشجرة فالمنظر بديع والمكان هادئ لا جلبة فيه

ثم سار الثلاثة تحت شجرة أنيرت بمختلف الشموع وقد تعدد لونها فصار الضوء بديعاً جذاباً . جلسوا على مقاعد فاخرة تحتها وقد مدت أمامهم مائدة حوت ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين فتسامروا قليلاً حتى اذا ما فرغوا من الاكل والشراب قال كلود لصديقه

— لي رجاء عندك يا عزيزي الماركيز . ولا أظنك تضن عليّ بتحقيقه

— وما هو ياصديقي . قل ما هو ولن ارد لك سؤالاً ما حييت

— اني اتشرف بطلب يد ابنتك المدموازيل جوليت لابني مارسيل

— يا للسعادة . وهذا جلّ مناي . فليهنأ بها ولتهنأ به .

هات يدك يا بني اصافحها اثباتاً لما يكنه صدري لك من الحب والاحترام

فهجم مارسيل على يده يريد تقبيلها وهو يقول

ـ شكراً لك يا سيدي شكراً . هأنا اقبل تلك اليد التي وهبتني حبيبتي جوليت . وسترى مني يا سيدي كل ما يرضيك في سبيل اسعادها وراحتها

فنهض الماركيز وقال

ـ ارى ان الاوفق اعلان هذه الخطبة على القوم فيزيدون سروراً وتزيد الليلة بهاء

فصاح مارسيل وهو يكاد يقتله الفرح

ـ لله . ما اطيب قلبك واشرف نفسك

وجرى تابعاً اباه وحماه الى حيث القوم مجتمعون

فوقف الماركيز وصاح بصوت جهوري

ـ صمتاً يا سادة ... اني آت اليكم بنبأ سار فارهفوا آذانكم وعوا ما اقول .. ان هذا الشاب الكريم قد طلب مني يد ابنتي . فهي له .. تعالي يا جوليت . ضعي يدك بيده .... قد تمت الخطبة فاهتفوا لهما يا قوم بالدعاء

فصاح القوم وقد غلبهم السرور وقالوا

ـ هنيئاً لهما . فليحي العروسان . هيا . هيا . فلنشرب نخب سعادتهما في الحب واتصالهما بالزواج

فتقارعت الكؤوس وافرغت ومارسيل يكاد تقتله الغبطة عندما رأى يده ماسكة بيد جوليت . فمشى بينهما حبه وآماله حتى تواريا عن النظر وغابا عن البصر

ودامت الحفلة حتى انشق الفجر اوكاد ورجع المدعوون وهم يهتفون للعروسين عند ما كانا يشيعانهم بالباب

. . . . . .

بعد ثلاثة اشهر من تلك الليلة ماج قصر كلود لورانس بألوان الكهرباء واقيمت حفلة ثانية لم ير سكان باريس ابهى منها وأفخم

كانت الحفلة حفلة زواج مارسيل بجوليت وكان هذان يخطران بين القوم وقد سطعت عيونهما ببارق السعادة والسلام

وبينما كان مارسيل جالساً بالقرب من زوجته جوليت في مكان بديع حفه الماء والشجر يتهامسان بلغة الحب والهوى اقترب منهما لوسيان وقد ارتسمت على وجهه معالم السعادة وقال

ـ لعل سيدي يتذكر وعده لي يوم بثني حبه لمولاتي...

احم ...وها هي معي وهأنا قد أتيت انتظر وفاء الوعد

ثم دعك اذنه ومس قفاه بيده واطرق

فهب مارسيل من مكانه وقد غلب عليه الضحك من منظر خادمه ثم امرّ بيده على كتفه وقال

ـ وكيف انساك في غبطتي ولم تنسني في ضيقك حاشا ما كنت لاخلف الوعد

ثم تأبط ساعد امرأته وقال

ـ اتبعني

وسارا معه الى مأوى المدعوين وصاح مارسيل

ـ اليكم ياسادتي بمن كان له الفضل الاكبر في اظهار براءة أبي . . قد عاد يذكرني بوعد . وما كنت نسيته . . يريد اختتام حفلتي بزواجه من حبيبته . . وها هي . . فجئت أعلن عليكم أملي بحسن استقبالها والاحتفال بهما

فهتف القوم لها وصدحت الموسيقى بينهم بنشيد الحب والوئام

فارتمى لوسيان على قدمي مارسيل وقال

- أكرم بك من شهم . ويالك من نبيل

ثم تأبط ذراع خطيبته ومشي بها بينهم مشية الظافر السعيد .

. . . . . .

بينما كان هؤلاء القوم على ماوصفناه من السعادة والسرور دقت الساعة في دير سان لازار تنبيء ان الليل قد انتصف . فقامت امرأة مجللة بالسواد وكانت راكعة بالقرب من المحراب تصلي وتبكي ماضيها وتندم على ما ارتكبت من الشرور والآثام

قامت المرأة وكفكفت الدمع وتابعت السير حتى أوت غرفتها فدخلت فراشها ثم شهقت بالبكاء

ولم تمر لحظة حتى غلبها الكرى . . وساد على الدير السكون .

وكانت هذه المرأة جنفياف

تمت